سيرة شارلمان

تأليف

المؤرخ الفرنجي: أينهارد

ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور عادل زيتون

دار حسان للطباعة والنشر

سيرة شارلمان

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

دار حسان
للطباعة والنشر
دمشق - ص.ب ٣٢١٨

سيرة شارلمان

تأليف

المؤرخ الفرنجي : اينهارد

ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور عادل زيتون

مقدمة المترجم

[السلام الروماني ــ أزمة القرن الثالث ــ الغزوات والممالك الجرمانية ــ الفرنجة ــ كلوفيس ــ قيام امبراطورية شارلمان وسقوطها ــ الكتابات التاريخية في عصر شارلمان ــ حياة المؤرخ أينهارد ــ: نسبه ونشأته ــ المناصب التي شغلها ــ مؤلفات أينهارد ــ محتوى كتابه ــ مصادر الكتاب ــ موضوعية أينهارد في كتابه ــ القيمة العلمية لكتاب : « سيرة شارلمان » ــ الخاتمة] .

هذا الكتاب أشهر من أن يُعرّف ، ومؤلفه واحد من خيرة مؤرخي أوربة في العصور الوسطى الباكرة ، وبطله شارلمان Charlemagne ، من أشهر الشخصيات التي قادت أوربة الغربية وأعادت تنظيمها في فترة من أهم فترات العصور الوسطى وأشدها اضطراباً .

ولكي نفهم الدور الذي اضطلع به شارلمان ، علينا أن نعود عدة قرون الى الوراء ونُلقي بعض الأضواء على الظروف التي تعرض لها العالم الروماني من بدايات العصور الوسطى الى أواخر القرن الثامن الميلادي ... حيث يبدأ عصر شارلمان ، ذلك أن الذين صنعوا التاريخ ، لأية أمة من الأمم ، وفي أي عصر من العصور ، هم أيضاً من صنع التاريخ ، ومهما بلغ الرجال من العظمة والمجد فانهم لا يستطيعون أن يتصرفوا متجردين من عواطف الجيل الذي نشأوا فيه أو من همومه وآماله ومخاوفه ... فالتاريخ تصنعه ارادة الشعوب والأفراد جميعاً .

ومن المعروف أن الامبراطورية الرومانية قدمت ذروة عطائها الحضاري ، ووصلت الى أقصى اتساع لها ، في المرحلة التي عُرفت « بالسلام الروماني » Pax Romana ، الذي ران على عالم البحر المتوسط خلال القرنين الأولين للميلاد ، وأتاح للعالم المتحضر حياة هادئة لا تقلقها تهديدات الحروب وصليل

السيوف ، حتى إن الناس الذين عاشوا في ظل « السلام الروماني » اعتقدوا أن هذا الصرح الامبراطوري الشامخ سيبقى الى الأبد ••• وأن بقاء العالم مرتهن ببقاء الامبراطورية •

ولكن سرعان ما بدا واضحاً أن السلام الروماني كان شعاراً أكثر منه حقيقة موضوعية ، فقد ظل نظام العبيد سائداً ، والفقر بين الطبقات الدنيا مدقعاً ، ذلك لأن التوسع الحضاري حمل في طياته بذور تدهوره وفساده لأنه جاء بتقدم سطحي مصطنع ، فالحضارة الرومانية فرضت على الناس فرضا ولم تتمثلها الشعوب المحكومة تمثلا تاما ، هذا فضلا عن أن هذه الحضارة ، في أساسها ، كانت حضارة طبقة مترفة ، ولم تكن حضارة كل الشعب •

إن هذه التناقضات الحادة في جوف العالم الروماني بدأت تسفر عن وجهها الحقيقي في مطلع القرن الثالث الميلادي ، حيث شهد هذا القرن أزمة خطيرة تجلت في التدهور الاقتصادي والفوضى السياسية والعسكرية ، وتحطم مبادىء الجمهورية وانهيار التقاليد السياسية وتحول العرش الى ألعوبة بيد قادة الفيالق الرومانية • هذا فضلا عن تفاقم الاضطهادات الدينية التي دفعت بالتمزق العقائدي في الامبراطورية الرومانية الى مرحلة بالغة الخطورة،ولاسيما بين المسيحية من ناحية والعقائد السائدة في المجتمع الروماني من ناحية أخرى•

ومع هذا الانحلال الداخلي للامبراطورية الرومانية بدأت الأخطار الخارجية تحيق بها ، وخاصة الخطر الفارسي من الشرق ، والخطر البربري الجرماني من الشمال • وعلى الرغم من الاصلاحات التي قام بها كل من الامبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ، والامبراطور قسطنطين الكبير Constantine the Great (٣٠٥ ـ ٣٣٧ م) ، المالية منها والادارية والعسكرية والدينية ، إلا أنها لم تسهم الا في تخفيف سرعة تدهور الامبراطورية •

ولكن الغزوات الجرمانية ، التي اجتاحت العالم الروماني ، خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين،تعد مرحلة تحول بالغة الأهمية في التاريخ الانساني

عامة والتاريخ الأوربي خاصة ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج أسهمت إسهاماً مباشراً في طي التاريخ القديم وفتح عصر جديد بنظمه وقوانينه وتقاليده وثقافته وقيمه واقتصاده ••• وهو العصر الوسيط أو العصور الوسطى •

لقد نظر الجرمان ، الذين كانوا يعيشون خلف الراين والدانوب ، الى الامبراطورية الرومانية نظرات مختلفة ، فبعضهم دخلها بغية الاستيطان « والترومن »، وبعضهم الآخر اخترقها رغبة في الارتزاق والبحث عن مجال حيوي ، في حين نظرت فئة ثالثة منهم الى الامبراطورية على أنها عدو يجب أن يُهدم وتحل محله امبراطورية جرمانية • غير أن حلول الجرمان في الأراضي الرومانية لم يكن ، في بداياته ، كارثة فجائية ، وانما كان تسللا سلمياً ••• فالامبراطورية كانت تعاني ، منذ القرن الثالث الميلادي ، مشكلتين في آن معاً : مشكلة نقص القوات العسكرية اللازمة للدفاع عن حدودها المترامية ، والتي امتدت من الفرات شرقاً الى اسكوتلانده غرباً ، ومن الراين والدانوب شمالا الى السودان جنوباً • ومشكلة نقص الأيدي العاملة في الزراعة • ولم يجد الرومان مفراً أمامهم ، لحل هاتين المشكلتين، سوى استخدام الجرمان• وبذلك بدأ الاتصال السلمي بين الجرمان والرومان ، وأخذ الجرمان يتسربون الى داخل الامبراطورية كحلفاء للرومان ، بل وصل بعض الجرمان الى أعلى المراتب الحربية في قيادة الفيالق الرومانية ، وفُتحت أعينهم على ما تحويه الامبراطورية من ثراء ورخاء ومدنية من ناحية وعلى ما كان يدب في جوفها من ضعف وتمزق وانحلال من ناحية أخرى •

وأثناء هذا التسلل الجرماني البطيء في جوف العالم الروماني تعرض القوط Goths ، وهم من الشعوب الجرمانية التي كانت تعيش خلف الدانوب ، في أواسط القرن الرابع الميلادي ، الى خطر شعوب آسيوية بربرية ، وهي شعوب الهون Huns (المغول) • فبعد أن دمَّر الهون مملكة القوط الشرقيين Ostrogoths ، في أوكرانية ، اتجهوا غرباً ودفعوا أمامهم القوط الغربيين Visigoths ، الذين اضطروا الى اختراق الحدود الامبراطورية والانسياب

داخل العالم الروماني هروباً من وجه الهون وخوفاً من أن يحل بهم ما حل بأبناء جلدتهم من القوط الشرقيين من مصير أسود • وعاث القوط الغربيون في الأراضي الامبراطورية فساداً • وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الأباطرة الرومان لايقاف هذا السيل الجارف من الجرمان أو تنظيمه ، مستخدمين في سبيل ذلك القوة والذهب والسياسة ، إلا أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح • بل نجح أحد زعماء القوط الغربيين ، وهو آلاريك Alaric ، في احتلال مدينة رومة ، عام ٤١٠ م ، حيث أعمل أتباعه السلب والنهب والقتل في أرجاء «المدينة الخالدة » • وأخيراً استقر القوط الغربيون في اسبانية وأقاموا مملكة فيها استمرت حتى الفتح العربي الاسلامي لاسبانية عام ٧١١ م •

وفي الوقت الذي كان فيه القوط الغربيون يعيثون فساداً في الأراضي الامبراطورية اجتاز الفاندال Vandals ، وهم شعوب جرمانية بدائية، حدود الراين ، في مستهل القرن الخامس ، وقادهم ملكهم جنزريك Genseric عبر مضيق جبل طارق ، الى شمال افريقية ، عام ٤٢٨ ــ ٤٢٩ م ، ونجح في اقامة مملكة لأتباعه الفاندال على أرضها • ولم يكن أمام رومة مفر سوى أن تعترف بجنزريك حاكما مستقلا على شمال افريقية•وبعد أن دامت هذه المملكة قرابة قرن من الزمان ، نجحت قوات الامبراطور البيزنطي جستنيان Justinian (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) في تدميرها وازالتها من الوجود عام ٥٤٨ م •

وفي ظل هذه الأحداث ، التي كانت تعصف بالغرب الأوربي وصل الى ايطالية زعيم جرماني ، على رأس جماعة من المرتزقة الجرمان ، واسمه أدواكر Odovacar بحثاً عن المغامرة والسلطان • وتمكن أدواكر هذا من اقتحام مدينة رومة ، عام ٤٧٦ م ، وأجبر الامبراطور رومولوس أوغستولوس Romulus Augustulus على التنازل عن العرش ونفاه الى نابولي • وبذلك تم خلع آخر امبراطور روماني في القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية ، واتخذت المدرسة التاريخية القديمة هذا الحادث نهاية للتاريخ القديم وبداية لتاريخ العصور الوسطى •

وكان القوط الشرقيون قد استعادوا حريتهم بعد موت الزعيم الهوني آتيلا Attila عام ٤٥٣م، وما ترتب على موته من انقسام مملكته وتقطيع أوصالها. وفي عام ٤٧٥ م انتخب القوط الشرقيون ثيودوريك Theodoric ملكاً عليهم ، وقاد الأخير شعبه مخترقاً الحدود الامبراطورية . واضطر الامبراطور البيزنطي زينون Zenon الى دفع غرامات مالية باهظة لشراء السلام منه . ومن ثم لجأ الامبراطور نفسه الى السياسة الرومانية التقليدية وهي :«دع الجرمان يقتتلون فيما بينهم » ، إذ حرّض ثيودوريك على غزو ايطالية والقضاء على أدواكر . وبالفعل تقبل الزعيم القوطي هذه المهمة وقاد شعبه الى ايطالية ، وحطم مملكة أدواكر ، وأقام لأتباعه مملكة على الأرض الايطالية ، متخذاً من مدينة رافنـة عاصمة لها . وفي أواسط القرن السادس الميلادي نجحت قـوات الامبراطور جستنيان من تدمير مملكة القوط الشرقيين هذه بعد حرب استمرت قرابـة عشرين عاما (٥٣٦ ـ ٥٥٣ م) .

وبرهنت الأحداث أن الامبراطور جستنيان قد ارتكب خطيئة فادحة عندما قام بتدمير مملكة القوط الشرقيين ، وذلك لأنه أزال الحاجز الوحيد الـذي يمكنه من الوقوف في وجه حشود الجرمان البرابرة الذين كانـوا يترقبون الفرصة المناسبة لغزو ايطالية . فقد كانت المصلحة العليا للامبراطورية تقتضي مصادقة القوط بدلا من اقتلاعهم ليدرأ بهم أخطار العناصر الهمجية الضاربـة فيما وراء الألب . وبالفعل فقد أفاد اللومبارديون Lombards ، وهم عناصر جرمانية ، من هذه الظروف وأخذوا يتدفقون الى ايطالية ، تحت قيادة ملكهم البوين Alboin عام ٥٦٨ م ، ودمروا كل ما حققـه جستنيان من انتصارات وأقاموا مملكة لهم في ايطالية الشمالية ، استمرت في النمو ، حجماً وأهميـة ، حتى دمرها شارلمان عام ٧٧٣ ـ ٧٧٤ م .

إن المملكة الجرمانية الوحيدة التي كتب لها البقاء والاستمرار ، وحلت تدريجياً محل الامبراطورية في القسم الغربي من العالم الروماني هي مملكـة الفرنجة The Frankish Kingdom، فقد كان الامبراطور جوليان المرتد Julian

the Apostate (٣٦١ ــ ٣٦٣ م) قد سمح للفرنجة بعبور الراين والاستقرار على الحدود الرومانية ، في منطقتي بلجيكا وحوض الراين الأدنى ، ليكونوا حلفاء للرومان ، وفي ظل التزامات عسكرية محددة ، اشتملت على تعهدهم بحماية الحدود الرومانية والدفاع عنها ضد المغيرين ، ومنذ ذلك الوقت أخذ الفرنجة بالتوسع في المناطق الغربية من غالية الرومانية • ولكن توسع الفرنجة في الأراضي الامبراطورية كان توسعاً بطيئاً ، خلافاً لبقية القبائل الجرمانية ، وكان تغلغلهم أشبه بالاستعمار الاستيطاني منه بالغزو المباشر ، كما كان الحال بالنسبة الى القوط والفاندال واللومبارديين وغيرهم من الشعوب الجرمانية •

وتذكر المصادر أن أقدم ملوك الفرنجة هو كلوديون ، وبعد وفاته خلفه على العرش الفرنجي ميروفتش Merovech الذي اشتق من اسمه اسم الأسرة الفرنجية التي حكمت غالية حتى عام ٧٥١ م ، ألا وهي الأسرة الميروفنجية • وبعد وفاة ميروفتش هذا ، عام ٤٥٦ م ، خلفه على العرش ابنه شيلدريك Childeric • وبعد وفاة الأخير ، عام ٤٨١ م اعتلى العرش الفرنجي ابنه كلوفيس Clovis (٤٨١ ــ ٥١١ م) •

وكان اعتلاء كلوفيس نقطة تحول بالغة الأهمية في تاريخ الفرنجة خاصة والغرب الأوربي عامة ، إذ استطاع هذا الملك الفرنجي الجرماني من أن يقود جموع الفرنجة ويفتح غالية بأسرها ويقضي على الممالك الجرمانية القائمة على أرضها ويقيم على أنقاضها مملكة فرنجية • ولعل أهم حدث في تاريخ الفرنجة هو تحول كلوفيس ، ومعه شعبه ، من الوثنية الى المسيحية الكاثوليكية • فقد تم تعميده على يد رئيس أساقفة ريمس عام ٤٩٦ م • وشبه المؤرخ جريجوري التوري Gregory of Tours هذا الحادث باعتناق قسطنطين الكبير المسيحية ، وأطلق على كلوفيس اسم « قسطنطين الجديد » •

وترتب على اعتناق كلوفيس وأتباعه للمسيحية على المذهب الكاثوليكي، وهو المذهب الرسمي للبابوية والشعوب الرومانية، احتضان الكنيسة والغاليين ــ الرومان له ولشعبه ودعمه في مشاريعه السياسية والعسكرية ضد كل القوى

الجرمانية الآريوسية Arianism في غالية ٠ هذا فضلا عن أن تحول كلوفيس كان أساسا للتحالف التاريخي الذي قام بين البابوية والفرنجة ، والذي وصل الى ذروته في أيام شارلمان (٧٦٨ ــ ٨١٤ م) ، وحقق من خلالــه الطرفان ، البابوية والفرنجة ، مصالحهما في الغرب الأوربي ٠

وبعد وفاة كلوفيس ، عام ٥١١ م ، بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة الفرنجية الميروفنجية ، نتيجة عدم كفاية خلفائه من الميروفنجيين في الحكــم وقصور مفاهيمهم السياسية ، وعجز المؤسسات القائمة عن ادارة المملكة ٠ كما أن تقسيم كلوفيس وخلفائه للمملكة ، جرياً على التمسك بالقواعد الجرمانية ، أدى الى تفتت المملكة الفرنجية واندلاع الحروب الأهلية بين أفــراد الأسرة الميروفنجية ٠ وترتب على استمرار التجزئة أن أصبحت المملكة الفرنجية تتألف من ثلاث ممالك صغيرة ترتبط فيما بينها بنوع من التحالف وهي : اوستراسية Austrasia ونوسترية Neustria وبورجوندي Burgundy

وفي الوقت الذي كان فيه الضعف يدب في أوصال الممالك الفرنجية كان نفوذ رؤساء البلاط Mayor of the Palace (أمراء القصر) فيها يزداد يوماً بعد آخر ، حتى إن هؤلاء سيطروا على الحكــم والادارة والشؤون الداخليــة والخارجية في الممالك الفرنجية الثلاث ٠ وكان كلما ازداد الملوك الميروفنجيون ضعفاً ازداد نفوذ رؤساء البلاط قوة ، بل تحول هؤلاء الملوك الى دمى بأيدي رؤساء البــلاط ٠ وسرعان مــا تمكنت احــدى الأسر النبيلــة في مملكــة أوستراسية، وهي أسرة بيبن Pepin ، من الوصول الى منصب رئيس البلاط وتحويل هذا المنصب الى منصب وراثي على غرار المنصب الملكي ، وبعبارة أخرى أصبح في مملكة اوستراسية أسرتان حاكمتان وراثيتان ، الأولى هــي الأسرة الملكية الميروفنجية ، والثانية هي أسرة رؤساء البلاط ٠

وفي عــام ٦٨٧ م تمكن بيبن الثاني (هريستــال) Pepin of Heristal من أن يجمع في يده رئاسة البلاط في اوستراسية ونوسترية ٠ وبعد وفاتــه ، عام ٧١٤ م ، أصبح ابنه ، شارل مارتل Charles Martel ، رئيساً للبلاط في الممالك الفرنجية الثلاث ، بل أصبح سيداً لا منازع له في المملكة الميروفنجية ٠

وعلى الرغم من أن شارل مارتل نجح في صد العرب المسلمين عن غالية في معركة بلاط الشهداء (بواتييه) Battle of Poitiers ، عام ٧٣٢ م ، واكتسب بذلك حامي أوربـــة وفارسها الأول ، إلا أنه لم يتمكن من اعتـــلاء العرش لأسباب لا مجال لبسطها في هذه العجالة •

كان شارل مارتل قد قسم المملكة ، قبيل وفاته ، عام ٧٤١ م ، بين ولديه، فكانت حصة ابنه الأكبر ، كارلومان Carloman ، القسم الغربي من المملكة ، في حين كانت حصة ابنه الأصغر بيبن ، الذي عُرف بالتصير Pepin the Short القسم الشرقي منها • وتولى كل من الأخوين رئاسة البلاط في القسم الذي حدد له في المملكة ، وانصرفت جهودهما الى تقوية نفوذهما الشخصي وادارة المملكة كما لو كانت من ممتلكاتهما • وفي عام ٧٤٧ م اعتزل كارلومان رئاسة البلاط ودخل دير مونت كاسينو Monte Cassino في ايطالية ، وبذلك أصبح بيبن القصير رئيس البلاط الوحيد في المملكة الفرنجية ، أو بالأحرى ، الحاكم الحقيقي ، ولا سيما أن الملك الميروفنجي كان لا يتمتع إلا باللقب الملكي •

وفي عام ٧٥١م بعث بيبن القصير سفارة الـــى البابا زكريـــا Zacharias (٧٤١ ــ ٧٥١ م) في رومة يسأله السؤال التالي : أليس من العدل أن يتمتع شخص بلقب ملك إذا كانت بيده السلطة الحقيقية في المملكة ؟ وبعبارة أخرى : أليس من حق الشخص الذي بيـــده السلطة الفعالية في المملكة أن تكون لـــه السلطة الاسمية ويحمل اللقب الملكي أيضاً ؟ • فأجاب البابا زكريا عن هـــذا السؤال الكبير قائـــلا : « إن اللقب الملكي هو حق لمن كانت بيـــده السلطة الحقيقية في المملكة » ، وهذا الجواب يعني أنه حيث توجد القوة يوجد الحق أيضـــاً •••!•

وبعد أن عادت السفارة الفرنجية من رومة ، تحمل جواب البابا ، دعـــا بيبن القصير مجلس النبلاء في المملكة الى الانعقاد في مدينة سواسون Soissons حيث أعلن أنه وفقاً لأوامر البابا فقد قرر أن يطلق على نفسه لقب « ملـــك الفرنجة » • ثم قام المبشر الانجليزي بونيفاس Boniface ، ممثلا للبابا ،

برسم بيبن القصير ملكاً ومسحه بالزيت المقدس في كاتدرائية سواسون • وهكذا فقد عزل آخر الملوك الفرنجة من الأسرة الميروفنجية ، وهو شيلدريك الثالث (٧٤٣ ــ ٧٥١ م) ، واعتلى العرش أسرة فرنجية جديدة كان بيبن القصير أول ماوكها • وأطلق المؤرخون المحدثون على الأسرة الفرنجية الجديدة هذه اسم الأسرة الكارولنجية نسبة الى كارلوس العظيم Karlous Magnus أي شارلمان ابن بيبن القصير وخليفته على العرش الفرنجي ، وذلك اقراراً بالدور الكبير الذي لعبه شارلمان في تثبيت أركان الدولة الفرنجية وتوسيع حدودها وبناء امبراطورية فرنجية في الغرب الأوربي فرضت هيبتها بين القوى الأوربية المعاصرة •

وعلى الرغم من أن المجال لا يسعنا لمناقشة الأسباب التي جعلت البابوية تقف الى جانب بيبن القصير ضد بقايا الأسرة الميروفنجية ، غير أنه يجب أن نؤكد على أن المصالح السياسية للبابوية في ايطالية خاصة والغرب الأوربي عامة ، هي التي أملت عليها اتخاذ موقفها هذا • ذلك أن البابوية كانت بحاجة، وقتذاك ، الى حماية ممتلكاتها وأوقافها واستقلالها من خطر اللومبارديين الذين كانوا يعملون على فرض هيمنتهم على ايطالية كلها • وبما أن البابوية لم يكن بامكانها طلب المساعدة ، آنذاك ، من بيزنطة بسبب تردي العلاقات بينهما نتيجة لسياسة تحطيم الأيقونات التي سار عليها الأباطرة البيزنطيون ، فلم يكن أمام البابوية سوى التوجه الى الفرنجة للقيام بدور الحماة للكنيسة الرومانية وممتلكاتها ومستقبلها •

كان بيبن القصير قد قسم المملكة الفرنجية قبيل وفاته ، عام ٧٦٨ م ، بين ولديه ، شارلمان وكارلومان ، وكانت حصة شارلمان اوستراسية ونوسترية ونصف أقطانية ، في حين كان نصيب كارلومان بورجوندية وبروفانس والنصف الثاني من اقطانية • غير أن كارلومان مات فجأة ، عام ٧٧١ م ، فقام شارلمان بضم أقاليم أخيه الى ممتلكاته وانفرد بحكم المملكة الفرنجية كلها •

شن شارلمان حروباً ضد جميع القوى المعاصرة المحيطة بمملكته : من لومبارديين وسكسون وعرب وآفار ...، وكانت دوافعه في حروبه هذه تنبع من رغبته في توسيع رقعة مملكته من ناحية ونشر المسيحية الكاثوليكية من ناحية ثانية وحماية حدود بلاده من ناحية ثالثة . وقد حكم شارلمان ، وهو في ذروة قوته ، كل الغرب الأوربي ما عدا الجزر البريطانية وايطالية الجنوبية وصقلية . وحمل لقب « ملك الفرنجة واللومبارديين » ، ومن ثم لقب « الامبراطور » .

ولا شك في أن تتويج شارلمان « امبراطوراً رومانياً » على يد البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ — ٨١٦ م) ، في الخامس والعشرين من شهر كانون الاول ، عام ٨٠٠م ، يُعدُّ أهم أحجية مثيرة للجدل في تاريخ العصور الوسطى. وعلى الرغم من تعدد وجهات نظر المؤرخين المعنيين بهذه المسألة حول دوافع هذا التتويج والظروف والملابسات التي أحاطت به والنتائج التي ترتبت عليه على صعيد الفكر السياسي والواقع التاريخي ، إلا أنه تجدر الاشارة الى أن منح لقب « الامبراطور الروماني » لملك من ملوك الجرمان البرابرة ، على يد البابا ، أمر ليس له سابقة تاريخية ، وترتب عليه صراعات خطيرة شغلت حيزاً كبيراً من تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، هذا فضلا عن أن تتويج شارلمان أدى الى إحياء الامبراطورية في القسم الغربي ، بعد أن ظل هذا القسم دون امبراطور منذ خلع رومولوس اوغستولوس ، عام ٤٧٦ م . وبذلك أصبح في العالم الروماني امبراطوريتان : الامبراطورية البيزنطية في الشرق وعاصمتها القسطنطينية والامبراطورية الفرنجية في الغرب وعاصمتها اكس لاشابيل (آخن) Aix-La-Chapelle (Aachen) غير أن عوامل الانحلال والتدهور أخذت تدب في أوصال امبراطورية شارلمان بعد وفاته ، حتى كأن هذه الامبراطورية ذهبت مع مؤسسها الى القبر . ويُعدُّ شارلمان نفسه مسؤولا عن تحطيم امبراطوريته، ذلك أنه قام بتقسيمها بين أبنائه الثلاثة ، عام ٨٠٦ م ، ليحول دون وقوع حرب وراثية فيما بينهم ، ولم يتبع المبدأ الروماني القائل : « إن السيادة لا تتجزأ ». وبطبيعة الحال فقد ترتبت على سياسة التقسيم التي اتبعها شارلمان وابنه وخليفته

لويس التقي انـدلاع الحـروب الأهليـة بـين أبنـاء الأسرة المالكـة • وأفـاد أعـداء الامبراطوريـة المحيطـين بهـا ، مـن فيكنـج Vikings ومجريين وعرب مسلمين وغيرهـم ، ممـا يجري في داخلهـا مـن انحـلال وتمزق ، فأخذوا يهاجمـون أطرافهـا وينتزعون أجـزاء مـن أقاليمهـا • ولا شـك في أن اخفـاق السلطـة المركزيـة في الدفـاع عـن السكـان والبلاد ضد تلك الاخطار أدى الى بروز القوى المحلية وتفاقم نفوذ الامراء الاقطاعيين • فسكان الامبراطورية حولوا ولاءهم الى من يستطيع حمايتهم والدفاع عنهم ، فنقلوا ولاءهم من الدولة والامبراطور الى الامراء الاقطاعيين• ويضاف الى ذلك كله أن طبيعة الاقتصاد الذي اعتمدت عليـه امبراطوريـة شارلمان كان عامـلا أساسيا في انحلالها وسقوطها • فمن المعروف أن هـذه الامبراطورية عاشت في ظل اقتصاد زراعي مغلق يعتمد على الاكتفاء الذاتي ومبدأ المقايضة ، وبالتالي لم يكن بامكان امبراطورية شارلمان أن تستمر في البقاء ما دام اقتصادها مغلقا ويتجه نحو المحلية والاكتفاء الذاتي • وكـان الاختيار الصعب : إما أن يفتح هذا الاقتصاد المغلق أبوابـه وامـا أن تنهار الامبراطورية وتتمزق الى وحدات سياسية متكيفة مع الوحدات الاقتصادية المحلية • وبما أن الاقتصاد لم يكن بقادر ـ بحكم شروط عديدة ـ علي فتح أبوابه ، فقد تحققت الفرضية الثانية ، إذ انهارت الامبراطورية وقامت علـى انقاضها ممالك عدة كانت أساسا للدول القومية الاوربية في العصر الحديث •

الكتابات التاريخية في عصر شارلمـان :

كان من المستحيل أن تحرز أوربة أي تقدم في عصر الغزوات الجرمانية ، حتى إن بعض المؤرخين أطلقوا على القرون الاولى مـن العصور الوسطى ، والتي تمتد من القرن الخامس الميلادي حتى أواخـر القرن الثامن ، اسـم « العصور المظلمة » The Dark Ages ، إذ تعطلت خلالها عجلة الحياة الثقافية في الغرب، وانعدم نور العلم والمعرفة وانطفأت شعلة الحضارة الرومانية القديمة اللهم إلا من شعاع خافت من بقايا تراث لاتيني كان للكنيسة الرومانية أثر هام

في الابقاء عليه خدمة لأهدافها الدينية • غير أن الغزوات الجرمانيـة انخفض جيشانها مع الزمن ، فمع حلول القرنين السادس والسابع الميلاديين قـل عـدد الغزوات واستقرت معظم القبائل لكي تحيا حياة زراعية ، وبحلول القرن الثامن الميلادي كان الرعب المباغت الذي يسم الحياة البربرية قد اختفى الى حد ما وحل محله نظام مستقر مستند الى الزراعة وسن القوانين وجباية الضرائب •

وعلى الرغم من أن شارلمان كان أميًّا ، ولم يكن عالماً أو متعلماً ، فقـد وجه عناية خاصة الى الحركة العلمية ، وعمل على إحياء الدراسات الأدبية ، واهتم بجمع الكتب القديمة ، وخاصة مؤلفات اللاتين القدامى في ايطالية وغيرها من دول الغرب الأوربي • ولكي يجعل شارلمان هذه النهضة حقيقية استدعى الى عاصمته ، اكس لاشابيل ، جمعاً كبيراً من كبار علماء عصره ومثقفيه ، من الأدباء والفلاسفة والمفكرين وعلماء اللاهوت ، وضمهم الى بلاطه • ومن هؤلاء الشاعـر ثيودولف الاسبانـي Theodolphus والنحوي بطـرس البيزاوي Peter of Pisa والمـؤرخ بولس الشمـاس اللومبـاردي Paul the Decon كما استدعى من انجلترا الكوين Alcuin للاشتغال في أمور العلم والتعليم في مدرسة القصر (البلاط) المشهورة التي أسسها في عاصمته لتعليم أبنائه وأبناء كبار رجـال حاشيته • ولا شك في أن هذه النهضة العلميـة ، والتي عُرفت بالنهضة الكارولنجية ، ارتبطت بالجهود الضخمة التي بذلها شارلمان في إحياء التعليم ونشره في ربوع بلاده ، وقد قال الكوين مرة لشارلمان « إذا نفّذت مقاصدك ، فقد تنشأ أثينة جديدة في بلاد الفرنجة » • وعلى الرغم من اختلاف آراء المؤرخين حول أهمية هذه النهضة وقيمتها إلا أنها تشكل في الواقـع التاريخي تمهيداً أو بداية لنهضة القرن الثاني عشر الميلادي ، التي قامت في الغرب الأوربي ، وارهاصاً للنهضة الأوربية في العصر الحديث •

وقد احتل التاريخ ، في النهضة الكارولنجية ، مكانة مرموقة، إذ انتعشت حركة التدوين التاريخي وتعددت أشكال الكتابات التاريخية وفنونها بحيث يمكن أن نصنفها على النحو التالي :

١ ـ المؤلفات التاريخية :

ومن أمثلة هذه المؤلفات كتاب « تاريخ اللومبارديين » للمؤرخ بولس الشماس . وبولس هذا لومباردي الأصل ، ومن مشاهير الكتاب في المملكة اللومباردية قبل سقوطها على يد شارلمان . وكتاب « تاريخ الفرنجة » أو «تاريخ حكم الفرنجة» الذي ألفه راهب من دير القديس دينيس بعد عام ٧٢٧م . وهذا الكتاب يعد المصدر الوحيد عن الفرنجة في الفترة الممتدة ما بين ٦٥٧ و ٧٢٧ م . وكتاب « النظام في البلاط الامبراطوري »لمؤلفه أدلهارد Adelhard . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يصلنا إلا أن أحد رؤساء أساقفة ريمس ، في القرن التاسع الميلادي ، ويدعى هنكمار Hincmar الريمي ، احتفظ بالمادة الأساسية للكتاب المفقود في رسالة له لا تزال باقية الى اليوم . وفي القرن التاسع ألف أحد الأمراء الكارولنجيين ، واسمه نيثارد Nithard ، كتاباً تحت عنوان : « تاريخ عصر لويس التقي » عرض فيه المنازعات والحروب الأهلية التي نشبت بين أبناء الامبراطور لويس التقي ابن شارلمان .

٢ ـ كتب التراجم :

وهذه الكتب ازدهرت في عصر شارلمان ، ولا سيما أن مؤرخي العصور الوسطى عرفوا كتابة التراجم موضوعا من موضوعات التدوين التاريخي من خلال المؤرخ الروماني سيتونيوس Suetonius (٦٩ ـ ١٤١ م) صاحب كتاب « سير القياصرة الاثني عشر ».ومن كتب التراجم في ذلك العصر كتاب : « أعمال الامبراطور شارلمان » لمؤلفه نوتكر الألكن Notker the Stammer الذي كان راهباً في دير القديس جال St. Gall . غير أن أهم نموذج لكتب التراجم ليس في عصر شارلمان فحسب وإنما في أوربة العصور الوسطى أيضاً ، هو كتاب « سيرة شارلمان » للمؤرخ الفرنجي أينهارد Einhard الذي سنتناوله بالدراسة والتحليل في هذه المقدمة .

٣ ــ سير القديسين :

لم تهمل سير القديسيين في عصر شارلمان ، وإنما قل في هذا العصر عــدد الشخصيات التي يقدسها الرأي العام،في حين لا نكاد نجد في العصر الميروفنجي أسقفاً أو أباً إلا اشتهر بأنه قديس بعد موته . وكتابة سيرة قديس، سيد كنيسة من الكنائس ، أو دير من الأديرة ، كانت تعدّ في ذلك العصر واجباً دينياً وعملا تقياً ، حتى إنه كانت تُقرأ صفحات من حياة هذا القديس أو ذاك ، أمام الاتقياء والحجاج في يوم عيده . ولكن من المؤكد أن عدداً كبيراً من سير القديسين ، من أساقفة وآباء ، التي كانت معروفة في العصر الميروفنجي ، قد أعيد تأليف بعضها وكتابتها من جديد في العصر الكارولنجي لتتفق مع روح العصر وذوقه.

٤ ــ الحوليات التاريخية :

إن العصور الوسطى عرفت تمييزاً بــين الحولية والتاريخ ، اذ كانت الحوليات تسجل الأحداث وفقاً لتتابعها الزمني دون أن يهتم جامعوها بأن تتخذ سمة العرض الأدبي الرشيق ، في حين كان المؤرخ يولي اهتماماً فائقاً بالاسلوب دون أن يتقيد بالنظام الحولــي الصارم . وظــل نظام الحوليــات Annales نوعاً من التدوين التاريخي حتى نهاية العصور الوسطى وتطور تطوراً ملحوظاً . ولم تكن تلك الحوليات تتضمن مجرد وقائع وأحداث فحسب وانما تضمنت سرداً لأهم أحداث السنوات المتعاقبة ، كل سنة على حدة . ويُحتمل أن يكون ألكوين هو الذي نقل تلك الطريقة في التدوين التاريخي الى غالية . وتُقسم الحوليات التاريخية ، التي دونت في عصر شارلمان ، الى قسمين : أولهمــا : الحوليات الديرية : إذ أن شارلمان أدرك ما لهذه الحوليات من أهمية فأمــر الأديرة ، التي تدخل في نطاق امبراطوريته ، باتباع نظام الحوليات التاريخية عند تسجيل الأحداث.وكان لهذه الحوليات شأنها في تدوين كثير من الاحداث الهامة ، والتي كان من الجائز ألا تصلنا لولا محافظة تلك الأديرة عليهــا . وثانيهما : الحوليات الملكية ، وقد وجد هذا النوع من الحوليات الى جانب

الحوليات الديرية • وتناولت الحوليات الملكية تاريخ الكارولنجيين ، وكانت تحت اشراف رجال البلاط • وتقف الحوليات الملكية عند سنة ٨٣٩ م ، وذلك لأن التمزق الذي اعترى امبراطورية شارلمان قد قطع هذا العمل • ثم أكملت هذه الحوليات من جانبين : من فرنسة الشرقية التي أصبحت فيما بعد ألمانية ، ومن فرنسة الغربية • ولا شك في أن حفظ الحوليات قد هيأ مادة ثمينة للمؤرخين في الفترة الكارولنجية وما بعدها لاعادة كتابة تاريخ ذلك العصر •

حياة أينهارد :

نسبه ونشأته :

أينهارد مؤرخ فرنجي ، ولد عام ٧٧٠ م في منطقة نهر الماين Maine وكانت إحدى المقاطعات الشرقية في مملكة الفرنجة آنذاك • تلقى أينهارد تعليمه الأول في دير القديس بونيفاس في فولده Fulda (بمنطقة هيس) الواقعة على بعد ستين ميلا الى الشمال الشرقي من مدينة فرانكفورت وكان هذا الدير المركز الرئيسي للتعليم والمعرفة في البلاد الفرنجية وقتذاك •

وسرعان ما اكتشف مقدم دير فولده ، واسمه بايوغولف Baugulf ما يتمتع به أينهارد من امكانات ومواهب ، فاصطحبه ، عام ٧٩١ م الى العاصمة الفرنجية اكس لا شايل ، حيث أقنع شارلمان بضرورة الافادة مما اجتمع في شخص أينهارد من علم وذكاء وثقافة وحكمة • وبالفعل دخل أينهارد في خدمة شارلمان ، ولمع نجمه بسرعة في مدرسة القصر ، نتيجة مثابرته وتنوع معارفه وعمقها • وقد تحدث ألكوين عن مواهب أينهارد في رسالة له الى شارلمان قائلا: « إن أصدقاء أينهارد يعترفون بمواهبه ويطلقون عليه اسم أينهارد العظيم على الرغم من أنه كان قصيراً ونحيلا »•

وتزوج أينهارد من أخت أسقف ورمز Worms ، واسمها إمّه Emma غير أن هناك رواية ظهرت في القرن الثاني عشر الميلادي تقول إن ابنة شارلمان، واسمها إمّه Emma ، كانت على علاقة بالمؤرخ أينهارد ، وأن شارلمان لاحظ

ذلك وعفا عن الاثنين وأضفى على أينهارد شرف الموافقة على زواجه من ابنته الأميرة إمّه • ويبدو أن هذه الرواية أقرب الى الاسطورة منها الى الحقيقة التاريخية ، ذلك أنه ليس هناك أدلة كافية تثبت ذلك • هذا فضلا عن أن كتاب أينهارد « سيرة شارلمان » يخلو من الاشارة الى هذه المسألة ، ولو كان هذا الأمر حقيقة فان أينهارد لن يتردد في ذكر ذلك تصريحاً أو تلميحاً ، ولا سيما أن مصاهرة الأسرة المالكة تضفي عليه شرفاً كبيراً • ولا يستبعد أن يكون الأمر قد اختلط على بعض الباحثين ما بين الأميرة إمّه ابنة شارلمان، وامّه زوجة أينهارد •

المناصب التي شغلها أينهارد :

بيّن أينهارد في مقدمة كتابه « سيرة شارلمان » أن صداقة حميمة ربطته بشارلمان وأبنائه من بعده، وهذه الصداقة جعلت منه شخصية متميزة في البلاط، وسكرتيراً خاصا لشارلمان ومستشار ثقة له في الشؤون السياسية والعلمية وغيرها • فمن الناحية السياسية نجد شارلمان قد كلف أينهارد بمهمات كثيرة وعلى درجة عالية من الأهمية • فقد أرسله سفيراً الى رومة عام ٨٠٦ مللحصول على موافقة البابا ليو الثالث على الوصية التي كتبت في العام نفسه في تيونفيل Thionville والتي تضمنت تقسيم شارلمان الامبراطورية بين أبنائه • كما شارك أينهارد في صنع القرار الساسي المتعلق ببعض شؤون الدولة الفرنجية ، ففي الاجتماع الذي عقده زعماء الفرنجة في اكس لاشابيل ، في أيلول من عام٨١٣م، لمناقشة مسألة تعيين لويس التقي Louis the Pious (ابن شارلمان) امبراطوراً خلفاً لوالده ، نجد هؤلاء الزعماء يختارون أينهارد متحدثاً بلسانهم ، وينجح أينهارد في اقناع شارلمان بتعيين ابنه لويس امبراطوراً •

ولعب أينهارد دوراً علمياً كبيراً في المملكة الفرنجية ، فقد كان مستشاراً لشارلمان في الشؤون العلمية والثقافية • ففي عام ٧٩٩ م سأل شارلمان ألكوين سؤالا حول الآداب الاغريقية والرومانية ، فأجاب ألكوين بأن عليه أن يستشير

أينهارد حول ذلك • كما قام أينهارد بالتدريس في مدرسة القصر الى جانب عدد من الأعلام البارزين مثل : ألكوين وبولس الشماس وبطرس البيزاوي وغيرهـــم • وبذلك كـــان أينهارد واحـــداً من أولئك الذين قـــامت النهضة الكارولنجية على أكتافهم •

وبالاضافة الى الدور السياسي والعلمي الذي اضطلع به أينهارد ، بنجاح كبير ، في المملكة الفرنجية ، فقد عهد اليه شارلمان بادارة المنشآت العامة في المملكة ، ذلك أنه عمل مهندسا معماريا وأشرف على الطرق والقنوات والمباني والجسور • ويقال إن أينهارد أشرف شخصياًعلى بناء القصر الملكي في العاصمة اكس لا شابيل •

وبعد وفاة شارلمان ، عام ٨١٤ م ، ظل أينهارد صديقاً مقرباً من الامبراطور لويس التقي (٨١٤ ــ ٨٤٠ م) كما بين ذلك في مقدمة كتابه :«سيرة شارلمان»، بل انه سرعان ما تسنم منصب المستشار المؤتمن للويس التقي وأميناً لسره ومربياً ومدرساً لابنه لوثر في الفترة الواقعة ما بين عام ٨١٧ م وعام ٨٢٢ م ، هذا فضلا عن أن لويس كلف أينهارد بعدد من المهمات الكبيرة المتعلقة بشؤون الدولـــة •

وحوالي عام ٨٣٠ م اعتزل أينهارد كل مناصبه ، وغادر العاصمة الفرنجية الى الدير الذي بناه في مولينهايم (سيلخشتات Seligenstadt)على نهـــر الراين مؤثراً وزوجته ، إمّا ، حياة الرهبنة • ويبـــدو أن السبب في اعتزال أينهارد لمهامه في البلاط الفرنجي هو أنه لم يرغب في توريط نفسه في المؤامرات والأحقاد والدسائس التي نشبت بين أبناء الامبراطور لويس التقي • وظـــل أينهارد في هذا الدير حتى وفاته عام ٨٤٠ م •

مؤلفـــات أينهـــارد :

كان لدى أينهارد من المؤهلات ما مكنه من كتابة عدد من المؤلفات ونظم بعض الاشعار ، فقد كتب كتاباً عن السكسون ، ولكنه فـُقد ولم يصل الينا

منه شيء • غير أن أهم مؤلفاته التي وصلتنا هي كتابه عن حياة سيده شارلمان المعروف باسم : « سيرة شارلمان » Vita Karoli الذي كتبه أينهارد باللغة اللاتينية(١) • واختلف الباحثون حول تاريخ تأليف هذا الكتاب ، فبعضهم يرى أنه ألّف ما بين عام ٨١٧ م وعام ٨٢١ م ، وبعضهم الآخر يرى أنه ألف ما بين عام ٨٢٩ و عام ٨٣٦ م • ولكن على الرغم من اختلاف هذه التواريخ فمن المؤكد أن تأليفه قد تم بعد وفاةشارلمان بعدة سنوات،وفي أيام الامبراطور لويس التقي تحديداً ، ولا سيما أن القارىء لهذا الكتاب يدرك أن أينهارد ينظر الى ما مضى من أيام شارلمان نظرة انسان الى عصر ذهبي أسطوري مضى وانقضى •

محتوى كتاب « سيرة شارلمان » :

انقسم كتاب أينهارد الى مقدمة وثلاثة وثلاثين فصلا ، ففي المقدمة أشار المؤرخ الى الأسباب التي دفعته لتأليف كتابه ، وبيَّن أن غرضه من ذلك هو : « سرد قصة الحياة العامة والخاصة » لشارلمان رغبة منه في تخليد قصة سيده وتركها للاجيال اللاحقة بدلا من أن تذهب في ظلام النسيان •

أما الفصل الأول ، وهو بعنوان « البيت الميروفنجي » ، فقد تناول فيه أينهارد الضعف الذي دبفيأوصال المملكة الفرنجيةفيأواخر أيام الميروفنجيين، مبيناً كيف أصبحت السلطة الحقيقية وقتذاك بأيدي رؤساء البلاط ، في حين اكتفى الملوك الميروفنجيون باللقب الملكي •

وفي الفصل الثاني ، وهو بعنوان « أجداد شارلمان » ، تحدث أينهارد عن شارل مارتل ، جد شارلمان ، بوصفه رئيساً للبلاط الميروفنجي ، وأشار الى نشاطه ، في الداخل والخارج ، وخاصة انتصاره في معركة بلاط الشهداء

---

(١) اعتمدت على الترجمة الانجليزية للاصل اللاتيني التي قام بها تورنر S. E. Turner وقدم لها المؤرخ سدني بينتر S. Painter بعنوان : The Life of Charlemagne, (U.S.A, 1962).

(بواتييه) عام ٧٣٢ م • ثم انتقل المؤرخ الى الحديث عن ولدي شارل مارتل وهما كارلومان وبيبن القصير ، وكيف اعتزل الأول الحياة السياسية ودخـل سلك الرهبنة ، في حين انفرد الثاني برئاسة البلاط في المملكة الفرنجية كلها •

وتناول أينهارد في الفصل الثالث، وهو بعنوان « اعتلاء شارلمان العرش»، الانقلاب الذي قام به بيبن القصير في الدولة الفرنجية ، وما ترتب عليه مـن سقوط الأسرة الميروفنجية ، واعتلاء أسرة فرنجية جديدة العرش وهي الاسرة الكارولنجية • ثم بيّن المؤرخ كيف انقسمت المملكة بعد وفاة بيبن هذا ، بين ولديه : شارلمان وكارلومان• وبعد أن أشار أينهارد الى وفاة كارلومان وانفراد شارلمان بحكم المملكة ألمح الى بدايات الصراع بين الفرنجة واللومبارديين •

وخصص المؤرخ الفصل الرابع ، وهو بعنوان « منهج الكتاب » ، لبيان الخطة التي سار عليها في تأليف كتابه ، فأشار الى أن المعلومات المتعلقة بمولد شارلمان وطفولته غير متوفرة،ولذلك سيركز حديثه على أعمال سيده في الداخل والخارج وعلى شخصيته ونشاطه والحياة الادارية في عهده

أما الفصل الخامس ، وهو بعنوان « الحرب الأقطانية » ، فقد تحدث فيه المؤرخ عن الحرب التي دارت بين شارلمان وبين هونولد Hunold الأقطاني، فأشار أولا الى رفض أخيه كارلومان مساعدته للقضاء على ثورة الأقطانيين ضد الفرنجة ، وبيّن كيف اضطلع شارلمان بهذه الحرب ، بنجاح كبير ، ومعتمـداً على نفسه •

وعالج أينهارد في الفصل السادس « الحرب اللومباردية » التي دارت بين الفرنجة واللومبارديين في ايطالية ، فأشار الى أسباب هذه الحرب وجذورها ، ثم استعرض أهم وقائعها ، وما ترتب عليها من نتائج ، وفي مقدمتها تدمـير المملكة اللومباردية تدميراً كاملا على أيدي شارلمان وتعيين ابنه بيبن ملكـاً على ايطاليـة •

وفي الفصل السابع تناول المؤرخ « الحرب السكسونية » بايجاز ،مؤكداً

أن هذه الحرب كانت أكثر الحروب التي خاضها الفرنجة عنفاً واستمراراً . كما أشار الى الصعوبات التي واجهت الفرنجة أثناء صراعهم مع السكسون،وكشف عن أسباب استمرار هذه الحرب قرابة ثلث قرن من الزمان . واختتم أينهارد هذا الفصل بالحديث عن نجاح شارلمان في تحقيق أهم أهدافه من تلك الحرب وهو اعتناق السكسون المسيحية على المذهب الكاثوليكي .

وخصص أينهارد الفصل الثامن ، وهو بعنوان « الحرب السكسونية ـ تتمة » لاستكمال الحديث عن الصراع بين الفرنجة والسكسون ، مبيناً أهم المعارك التي خاضها الطرفان ، وكشف صلابة شارلمان واصراره على تحقيق أهدافه من هذه الحرب رغم كل الصعوبات .

أما الفصل التاسع فقد خصصه المؤرخ للحديث عن « الحملة الاسبانية » التي قام بها شارلمان ضد العرب المسلمين في اسبانية ، فأشار الى فشل هذه الحملة في تحقيق أهدافها فشلا ذريعا ، ثم تحدث عن الكارثة التي حلت بجيش شارلمان أثناء عودته من حملته على أيدي الباسك (البشكنس) Basques وما ترتب عليها من نتائج أدبية ومادية .

وتناول أينهارد في الفصل العاشر مسألة « اخضاع البريتون والبنفنتيين » على يد شارلمان ، وبيّن كيف أعلن البريتون ولاءهم للعاهل الفرنجي. ثم أشار الى حملة شارلمان على ايطالية للقضاء على ثورة البنفنتيين التي انتهت بالفشل وباعلان ولائهم لشارلمان وتقديم الرهائن له دون وقوع حرب حقيقية بين الطرفين .

وفي الفصل الحادي عشر ، وهو بعنوان « تاسيلو والحملة البافارية » ، تحدث المؤرخ عن الحملة التي قادها شارلمان ضد البافاريين ، مبيناً كيف اضطر تاسيلو Tassilo الى اعلان خضوعه لملك الفرنجة قبل اندلاع الحرب بينه وبين شارلمان . ويختتم المؤرخ هذا الفصل بالاشارة الى عزل تاسيلو وتولي الكونتات حكم بافارية .

وعالج أينهارد في الفصل الثاني عشر ، وهو بعنوان « الحرب السلافية » الحرب التي دارت بين شارلمان والسلاف ، ويكشف عن أسبابها وظروفها ، ويبين أن شارلمان استطاع أن يسحق أقوى القبائل السلافية ويخضعها لسلطانه .

وخصص المؤرخ ، الفصل الثالث عشر ، للحديث عن «الحرب مع الهون» حيث كشف أن هذه الحرب كانت من الحروب العنيفة التي خاضها شارلمان ، وبيّن أن العاهل الفرنجي قاد بنفسه احدى الحملات ضد الهون ، في حين تولى قيادة الحملات الأخرى ابنه بيبن وحكام الأقاليم فضلا عن المبعوثين . واختتم أينهارد هذا الفصل بالاشارة الى ما انتهت اليه هذه الحرب ، التي استمرت قرابة سبع سنوات ، من دمار لمملكة الهون .

وفي الفصل الرابع عشر ، وهو بعنوان « الحرب الدانماركية » تناول أينهارد بايجاز آخر الحروب التي خاضها شارلمان ، وهي الحرب ضد النورمان، وبخاصة ضد الدانماركيين ، وبيّن أسباب هذه الحرب والاخطار التي كادت تلحق بمملكة الفرنجة من جراء أعمال هؤلاء وتهديدهم . وأشار المؤرخ الى أن موت ملك الدانماركيين قد وضع نهاية لهذه الحرب .

أما الفصل الخامس عشر ، وهو بعنوان « حدود فتوحات شارلمان » ، فقد بيّن فيه أينهارد أن رقعة المملكة الفرنجية أصبحت في عهد شارلمان ضعف رقعتها عندما تسلمها من والده ، ذلك أن شارلمان أضاف الى مملكة الفرنجة كلا من أقطانية وجاسكوني واقليم البرانس وايطالية وسكسونية وبانونية وداكية وايسترية وليبورنية ودالماثية

وتحدث المؤرخ في الفصل السادس عشر عن « العلاقات الخارجية » التي أقامها شارلمان مع الدول المعاصرة له ، مثل علاقته بالملك الفونسو Alfonso ملك اشتورياس ، وعلاقته بالملوك الاسكوتلانديين . كما أشار الى العلاقات الودية التي قامت بين شارلمان والخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٦—٨٠٩م) والهدايا التي تبادلها العاهلان . واختتم أينهارد هذا الفصل بالاشارة الى

العلاقات التي قامت بين شارلمان وأباطرة الدولة البيزنطية على الرغم من المشكلات السياسية التي كانت قائمة بين الطرفين •

وتناول أينهارد في الفصل السابع عشر « الاعمال العامة » التي قام بها شارلمان ، والتي استهدفت بناء مملكته وازدهارها ، فأشار الى الجهود التي بذلها الملك الفرنجي في بناء كنيسة اكس لا شابيل وجسر مينتس وقصري انجلهيم Ingelheim ونيمجن Nimeguen ، هذا فضلا عن اهتمام شارلمان في بناء الاسطول لمواجهة الخطر النورماني •

وخصص أينهارد الفصل الثامن عشر للحديث عن «حياة شارلمان الخاصة» فأشار الى العلاقة غير الودية التي كانت قائمة بين شارلمان وأخيه كارلومان ، ثم ألمح الى الزواج غير الموفق الذي تم بين شارلمان وابنة الملك اللومباردي ديسيدريوس ، ومن ثم استعرض أينهارد زوجات شارلمان وخليلاته الواحدة تلو الاخرى وما أنجبن له من أولاد • واختتم المؤرخ هذا الفصل بالحديث عن والدة شارلمان ، واسمها برثرادة Berthrada ، وعن شقيقته ، واسمها جيزلة Gisela وما كان يكنّ لهما شارلمان من حب وتقدير •

وفي الفصل التاسع عشر ، وهو بعنوان « حياة شارلمان الخاصة ــ تتمة» ، بيّن أينهارد طريقة شارلمان في تربية أولاده ، ومدى اهتمامه بتعليم أولاده جميعا ، البنين منهم والبنات ، الفنون الحرة • ثم أشار الى حب شارلمان لأولاده وتعلقه بهم • وكشف المؤرخ عن أمر في غاية الاهمية وهو أن شارلمان لم يسمح لبناته بالزواج اطلاقاً بحجة أنه لا يطيق فراقهن ، وبيّن أنه كان على شارلمان التغاضي عن كل الشائعات التي كانت تدور حولهن •

أما الفصل العشرون ، وهو بعنوان « المؤامرات ضد شارلمان » فقد تناول فيه المؤرخ ، باختصار شديد ، أهم المؤامرات التي حُبكت داخل المملكة الفرنجية ضد شارلمان ، وكشف أن احدى هذه المؤامرات كان يقف خلفها ابنه بيبن الأحدب • كما أشار الى أن زوجته ، فاسترادة ، كان لها ضلع بالمؤامرات

التي استهدفت الاطاحة بشارلمان • وبيَّن المؤرخ ، أخيراً ، كيف أخفقت هـذه المؤامرات في تحقيق أهدافها •

وتحـدث أينهارد في الفصل الحادي والعشرين عن « معاملة شارلمـان للاجانب » ، مبيناًمدى حب شارلمان لهؤلاء الأجانب ، وما كان يبذله من جهود لتأمين الحماية لهم داخل مملكته • ثم أشار المؤرخ الى أنه على الرغم من أن هؤلاء الأجانب كانوا مصدر شغب في المملكة ، أحياناً ، الا أن شارلمان كان يتغاضى عن ذلك •

وتناول المؤرخ أينهارد في الفصل الثاني والعشرين « المظهـر الشخصي لشارلمان » وبيَّن أن شارلمان كان ضخم الجسم ، قوي البينة ، طويل القامة ، وأن مظهره كان يدل على الهيبة والوقار • ويكشف أينهارد أن شارلمان لم يكن يعبأ بنصائح الاطباء وانما كان يعمل وفقا لميوله ورغباته ، فقد رفض التخلي عن تناول اللحوم المشوية واستبدالها باللحوم المسلوقة كما نصحه الأطباء • ثم يذكر المؤرخ العادات المتأصلة في شخصية شارلمان مثـل ركوب الخيـل والصيد والسباحـة

وخصص أينهارد الفصل الثالث والعشرين للحديث عن «ملابس شارلمان» فأشار الى أن العاهل الفرنجي كان يرتدي لباساًوطنياً، لأنه كان يزدري الملابس الأجنبية مهما كانت جميلة ، وأن شارلمان لم يسمح لنفسه بارتداء ثوب منهـا الا مرتين في رومـة •

وفي الفصل الرابع والعشرين تناول أينهارد « عادات شارلمان » وبيَّن أن الملك الفرنجي كان معتدلا في تناول الطعام والشراب ، وأنه كان يستمع أثنـاء تناول الطعام الى شيء من القراءات أو الموسيقى ، وأنه كـان معجباً بكتاب القديس أوغسطين St. Augustine « مدينة الله » •

أما الفصل الخامس والعشرون فقد عالج فيه المؤرخ« دراسات شارلمان » ملمحاً الى استعداد شارلمان للتعلم واهتمامه بدراسة لغته القومية واللغـات الأجنبية والفنون الحرة • ثم تحدث المؤرخ عن أولئك الذين لعبوا دوراً علمياً

بارزاً في أيام شارلمان ، مثل بطرس البزاوي وألكوين البريطاني • واختتم أينهارد هذا الفصل بالاشارة الى أن شارلمان حاول تعلم الكتابة ولكنه لم يحقق إلا نجاحاً ضئيلا في هذا السبيل •

وتحدث أينهارد في الفصل السادس والعشرين عن « تقوى شارلمان » ، مؤكداً تمسك العاهل الفرنجي بمبادىء الديانة المسيحية ، ومبيناً الجهود التي بذلها لبناء كنيسة اكس لا شابيل التي جلب الاعمدة الرخامية لبنائها من مدينتي رومة ورافنة • وأشار المؤرخ الى حرص شارلمان على رعاية الكنيسة وحرمتها ونظامها وتحسين التلاوة فيها •

وتناول المؤرخ في الفصل السابع والعشرين « كرم شارلمان » ، حيث أوضح أن شارلمان كان شديد الرغبة في مساعدة الفقراء وتقديم الهبات والصداقات لهم ، وأن السر في العلاقات الودية التي أقامها شارلمان مع ملوك ما وراء البحار هو أنه كان يرجو حسن معاملة هؤلاء الملوك للمسيحيين الذين يعيشون في ظل حكمهم • واختتم أينهارد هذا الفصل بالاشارة الى اهتمام العاهل الفرنجي بكنيسة القديس بطرس في رومة اهتماماً خاصاً ، اذ أغدق عليها مقادير كبيرة من الذهب والفضة، وحماها من كل الاخطار التي أحدقت بها •

وخصص أينهارد الفصل الثامن والعشرين ، وهو بعنوان « شارلمان امبراطور متوج » للحديث عن مسألة تتويج شارلمان « امبراطوراً رومانياً » على يد البابا ليو الثالث عام ٨٠٠ م • فكشف أولا الظروف التي دفعت شارلمان لزيارة مدينة رومة في ذلك العام ، ثم أشار الى حفلة التتويج التي لم يكن لشارلمان علماً بها • واختتم أينهارد هذا الفصل بالحديث عن استياء أباطرة بيزنطة من اتخاذ شارلمان لقب « امبراطور » •

وفي الفصل التاسع والعشرين تناول المؤرخ « اصلاحات شارلمان » ، خاصة في ميدان القانون، اذ بيّن أن شارلمان أصلح بعض القوانين وطوّر بعضها الآخر • كما أوضح أن العاهل الفرنجي أمر بتدوين الاغاني القديمة التي تمجد

أعمال الملوك القدامى وحروبهم بغية نقلها للاجيال التالية . واختتم أينهارد هذا الفصل بالاشارة الى الأسماء الجديدة التي أطلقها شارلمان على الاشهر والرياح .

أما الفصل الثلاثون فقد تناول فيه أينهارد مسألتي « تتويج لويس ووفاة شارلمان »، فبيّن كيف استدعى شارلمان الامراء الفرنجة، عام ٨١٣م وبموافقتهم قام بتتويج ابنه لويس ، المعروف بالتقي ، امبراطوراً على الفرنجة ، ثم انتقل المؤرخ الى الحديث عن وفاة العاهل الفرنجي شارلمان ، عام ٨١٤ م ، عن عمر قدره اثنين وسبعين عاما بعد أن حكم الفرنجة قرابة سبع وأربعين سنة .

وتحدث المؤرخ أينهارد في الفصل الحادي والثلاثين عن « دفن شارلمان » فأشار الى أن شارلمان لم يعط أية توجيهات في حياته تتعلق بموضع دفنه . وأوضح أن الزعماء الفرنجة قرروا دفنه في كنيسة العاصمة ، اكس لا شابيل ، في اليوم نفسه الذي مات فيه . وبين أينهارد كيف نُصب قوس مطلي بالذهب فوق قبره يحمل صورته وكتابات تقول : « في هذا القبر يرقد جسد شارلمان ، الامبراطور الارثوذكسي العظيم .... ».

وتناول أينهارد في الفصل الثاني والثلاثين « مؤشرات وفاة شارلمان » فبيّن أنه كانت هناك مؤشرات تنبىء بدنو أجل سيده شارلمان ، مثل كسوف الشمس وخسوف القمر أكثر من مرة ، والتهام النيران للجسر الذي بناه على الراين عند مدينة مينتس ... ويختتم المؤرخ هذا الفصل بالاشارة الى أن شارلمان قد استخف بكل هذه المؤشرات أو أنه تظاهر بالاستخفاف بها .

أما الفصل الاخير من كتاب « سيرة شارلمان » ، وهو الفصل الثالث والثلاثون ، فقد خصصه أينهارد للحديث عن « وصية شارلمان » ، التي أملاها، عام ٨١١ م ، وتضمنت تقسيم شارلمان لكنوزه وأمواله وملابسه وممتلكاته المنقولة الاخرى بين أبنائه وبناته وأحفاده والكنائس والاسقفيات والعاملين في البلاط فضلا عن الفقراء في المملكة .

الغايـة من تأليف الكتـاب :

ان الدارس لكتاب «سيرة شارلمان» يدرك أن هناك ثلاثة أهداف أساسية تكمن وراء اقدام أينهارد على تأليف كتابه ، الهدف الاول هو هدف علمي خالص ، ذلك أن أينهارد ، كما صرح في مقدمة كتابه ، أراد « سرد الحيـاة العامة والخاصة » لسيده شارلمان وتركها للاجيال اللاحقة بدلا من أن تترك قصة حياة « أكثر الملوك تميُّزاً وأجل أمراء عصره » يلفها ظلام النسيان . أما الهدف الثاني فهو شخصي ، ذلك أن أينهارد وجد أن الواجب يقتضي منه الوفاء لسيده شارلمان الذي ارتبط معه بصداقة حميمة وأحاطه ، وأولاده من بعده ، بكل أنواع الرعاية ، ولهذا رأى أنه من باب الوفاء والعرفان بالجميل لسيده شارلمان وللاسرة المالكة أن يكتب سيرة له . والهدف الثالث ، كما يبدو ، هو هدف سياسي ، ذلك أن أينهارد رغب في أن يضع أمام الامبراطور لويس التقي وأبنائه سيرة سيده شارلمان لتكون بمنزلة مثل يحتذى ومثال يُقتدى في ادارة المملكة الفرنجية ، ولا سيما أن الصراع بين لويس وأبنائه جعل كل انجازات شارلمان في خطر حقيقي .

منهج اينهـارد في كتابـه :

عندما تصدى أينهارد لمهمة كتابة الترجمة الذاتية لسيده شارلمان واجه مسألة جدية ، وهي كيف يكتب الانسان السيرة ؟. ربما أخذ يبحث ، دون جدوى ، عن مثال لسيرة شخصية علمانية مسيحية يتخذه دليلا يقتفي أثره وهو يكتب عن حاكم علماني . فقد كانت التراجم المألوفة لديه أو المتاحة له هـي سير القديسين التي وجد أنها لا تناسبه دليلا في الكتابة عن شخصية علمانية كشارلمان . ولهذا أخذ يبحث في الأدبيات الكلاسيكية عن مثال يتخذه مرشداً لكتابـة سيرة سيده فوجـد في كتاب « سير القياصرة الاثني عشر » للمؤرخ الروماني سيتونيوس (٦٩ ــ ١٤١ م) خير مثال لكتابة «سيرة شارلمان» والتي اشتهرت باسم « السيرة الثالثة عشرة » ، لأنها جُعلت بمثابة اضافة تكميلية

لكتاب سيتونيوس الذي ضم القياصرة من يوليوس قيصر (ت ٤٤ ق٠م) الى دوميسان (ت ٩٦ م) ٠

والواقع فقد درس أينهارد كتاب سيتونيوس بدقة وتمعن ، وكانت نسخة منه في مكتبة دير فولده ، واستوحى منه المخطط والشكل العام وتنظيمه وترتيبه من الداخل ٠ ويبدو أن أينهارد استخدم من كتاب سيتونيوس سيرة أوغسطس (اوكتافيانوس ــ ت ١٤ م) بصفة خاصة ، لأن شارلمان كان في نظر أينهارد أوغسطساً جديداً ، بل انه قاس أعمال شارلمان بمقاييس المثالية الأوغسطية ، واقتبس العبارات الوصفية التي استخدمها سيتونيوس لوصف أعمال شارلمان حتى عندما لا تنطبق هذه العبارات أو التعابير على شارلمان بشكل حقيقي ٠

مصادر الكتاب :

لم يذكر أينهارد بوضوح المصادر التي استمد منها المادة العلمية لكتابه، وربما يُعدُّ هذا مأخذاً عليه ٠ غير أننا نستطيع أن نستنتج المصادر التي اعتمد عليها في الحصول على المعلومات التاريخية التي دونها في كتابه،وذلك بالاعتماد على ما ورد في الكتاب ذاته من اشارات متفرقة تدل على هذه المصادر ٠ فمن الواضح أن أينهارد حصل على بعض المعلومات عن طريق الرواية الشفوية ، وخاصة ما يتعلق بالفترة المبكرة من حياة شارلمان ، لأن هذه الفترة ، كما يقول، لم تعها ذاكرته ٠ كما اعتمد أينهارد على مشاهداته الشخصية ، ذلك أنه كان شاهد عيان ، كما يصرح بذلك ، على عدد من المسائل والوقائع والاحداث التي وقعت حوله والتي ينفرد ، دون الآخرين ، بمعرفتها لأنه كان قد استقر بالبلاط وكان على علاقة وثيقة بالامبراطور ، فهو مستشار يؤخذ رأيه بالأحداث المتعلقة بأمور المملكة في الداخل والخارج ٠ ولا شك في أن أينهارد اعتمد على مؤلفات زملائه في مدرسة القصر ، أمثال بولس الشماس اللومباردي ، صاحب كتاب « تاريخ اللومبارديين » ٠ ويضاف الى ذلك كله أن أينهارد أفاد فائدة

كبيرة من الحوليات الملكية ، وذلك لأن استقراره في البلاط الفرنجي مستشاراً وأميناً لسر شارلمان وابنه لويس التقي ، من بعده ، قد هيأ له ما لم يتهيأ لغيره من الفرص لجمع المادة العلمية من التواريخ المعروفة بالحوليات الملكية،ولاسيما أن حفظ الحوليات كان قد بدىء به مشروعاً تتبناه الدولة •

موضوعيـة أينهـارد :

ان الدارس لكتاب أينهارد « سيرة شارلمان » ، بروية وأناة ، يدرك أنه نشط نشاطاً ملحوظاً لكي يقدم صورة دقيقة وموضوعية عن شخصية سيده شارلمان وأعماله في داخل المملكة الفرنجية وخارجها • غير أننا يجب ألا نغفل العامل الشخصي في كل ما كتبه أينهارد، فموضوعيته لم تكن مطلقة على امتداد الكتاب ، ذلك أنه بالغ في بعض المسائل أشد المبالغة في حين أغفل بعض المسائل الاخرى على الرغم من أهميتها•وبطبيعة الحال فان ذلك يعود الى كون أينهارد عاش في البلاط ورغب في أن يكون وفيا لسيده ، ولو على حساب الحقيقـة التاريخية أحيانا ، وتحاشى ذكر كل ما يمكن أن يؤثر في سمعة سيده أو يؤثر في السيرة التي يرسمها له • فقد تجاهل أينهارد الاخطاء والجرائم التي ارتكبها سيده مثل مذبحة فردان التي أعدم فيها أربعة آلاف وخمسمائة سكسوني في يوم واحد لأنهم كانوا يدافعون عن استقلال بلادهم وبحجة أنهم رفضوا اعتناق المسيحية • كما بالغ أينهارد في الانتصارات التي حققهـا سيده في حروبـه الخارجية في حين أغفل ، أحيانا ، الهزائم التي مني بها•وبرر لشارلمان الاجراءات التي كان يتخذها حرصا منه على أن لا يطعن من الاجيال القادمة • كما تجاوز أينهارد عدداً من التفاصيل التي رآها مربكة ، مثل اخلاقيات بنات شارلمان ، حرصا منه على ألا يلحق الاساءة بسمعة أبيهن شارلمان ، وفضلا عن ذلك كله فقد نسب أينهارد الى شارلمان من الصفات والخصال والجاذبية ما لم يرد لها ذكر في المصادر الاخرى وما لا تكاد تتفق مع الواقع التاريخي •

القيمة العلمية لكتاب « سيرة شارلمان » :

على الرغم من أن أينهارد وقع ، فيما رواه من وقائع في كتابه ، بعدة أخطاء علمية ، اما بسبب المعطيات والمصادر التي اعتمد عليها ، أو لتقصير منه في تحري الحقائق وادراك الوقائع وتفهمها على الوجه الذي وقعت فيه فعلا . أقول على الرغم من ذلك فان هذه المآخذ وغيرها لا تذهب بالقيمة العلمية الكبيرة لكتاب أينهارد مصدراً رئيساً من مصادر تاريخ العصور الوسطى . فأينهارد يُعد مثال المؤرخ في العصور الوسطى الباكرة ، وعندما نقارنه بغيره من مؤرخي أوربة المعاصرين له ، مثل بولس الشماس ، نجده يتصف بالتفكير التاريخي الواعي المتحرر من انفعالات العصور الوسطى ، وبالدقة العلمية في معظم ما دونه في كتابه . فكتابه يخلو ، في معظمه ، من شطحات الخيال والاساطير التي ملأت كتب التاريخ في ذلك العصر . فهو لم يبحث عن القصص الخرافية والمغامرات في حياة بطله شارلمان كما فعل معظم مؤرخي عصره . ويُعد أينهارد أول من كتب سيرة ذاتية لشخصية علمانية في تاريخ أوربة العصور الوسطى ، وأهم عمل من نوعه في الكتابة التاريخية في تلك العصور . ولهذا فان كتاب أينهارد ، الذي تميز بالاسلوب الواضح والايجاز والبراعة في التصوير،هو الكتاب الوحيد الذي يصح أن نعده مؤلفا تاريخيا في ذلك العصر، ورائعة من روائع النهضة الكارولنجية ، وأجمل انتاج أدبي لها ، ومثلا أفاد منه مؤرخو العصور التالية أيما افادة .

ولعل أبرز ما تتجلى فيه القيمة العلمية لهذا الكتاب هو أنه المصدر الأساسي للمعلومات المتعلقة بالاحداث التي وقعت في عصر شارلمان ، فالكتاب لم يقتصر على معالجة جانب دون آخر من عصر شارلمان، وانما كان عرضاً طريفاً جامعاً لشتى المعلومات عن النظم الادارية والتربوية والحكومية والاحوال الاجتماعية ، فضلا عن دقائق الشؤون السياسية والعسكرية في عهد شارلمان .

وأهم من ذلك كله هو أن كتاب « سيرة شارلمان » يُعد المصدر الرئيسي عن شارلمان الانسان ، فقد استطاع أينهارد النفاذ الى عقل شارلمان والى

شخصيته وأسلوبه في الحياة • وهذه المسألة لا نعثر عليها في أي مصدر من المصادر المعاصرة ، ولا في الوثائق الرسمية التي وصلت الينا • ومساهمة أينهارد هذه تجعل من كتابه عملا علمياً وأدبياً كبيراً •

وتجدر الاشارة الى أن لهذا الكتاب أهمية خاصة بالنسبة الى التاريخ العربي الاسلامي من ناحية والى العلاقات بين الشرق والغرب ، في تلك الفترة المبكرة من تاريخ العصور الوسطى ، من ناحية أخرى • فالكتاب يُعدّ من المصادر اللاتينية القليلة التيأشارت الىالعلاقات الودية التي قامت بين شارلمان والرشيد ، غير أن ما ذهب اليه أينهارد في كتابه ، حول طبيعة هذه العلاقات ومراميها وأهدافها بعيد كل البعد عن الحقيقة التاريخية ، حيث امتزجت في روايته الاساطير والاوهام والمغالطات ، وأثار مسائل بالغة الاهمية والخطورة، كما سنناقش ذلك في حينه ، الا أنه كشف،وربما دون أن يدري ، مطامع القوى السياسية الغربية ، بالمشرق العربي عامة وفلسطين خاصة ، منذ تلك الفترة المبكرة من تاريخ العصور الوسطى •

كما يُعد هذا الكتاب مصدراً هاماً للعلاقات التي قامت بين العرب المسلمين في الاندلس وبين الدولة الفرنجية ، بدءاً من معركة بلاط الشهداء (بواتييه)عام ٧٣٢ م / ١١٤ هـ ، ووصولا الى حملة شارلمان « المنكودة » على الاندلس عام ٧٧٨ م / ١٦١ هـ ، وما ترتب عليها من نتائج مادية وأدبية •

ولعل من أهم ما يكشف عنه أينهارد ، في اطار العلاقات بين الشرق والغرب ، هو الفروق الحضارية الهائلة بين المشرق العربي الاسلامي من ناحية والغرب الأوربي ، في عصر شارلمان ، من ناحية أخرى • ففي الوقت الذي كان فيه شارلمان نفسه ، فضلا عن رجال بلاطه، يحاولون أن يتعلموا القراءةوالكتابة دون نجاح ملموس ، كانت فيه بغداد ودمشق والقاهرة ، وغيرها من المدن العربية ، تشكل مراكز ثقافية عالمية في شتى مناحي المعرفة الانسانية ، يتناقش فيها العلماء في خبايا الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية •

وتقتضي الامانة العلمية أن أشير الى أنني اعتمدت الترجمة الانجليزية للأصل اللاتيني ، وهذه الترجمة أعدت في الاصل للقارىء الاوربي الذي هو على دراية بتاريخ بلاده في العصور الوسطى ، ولهذا فانها تكـاد تخلو مـن الحواشي الا بعض اشارات طفيفة • ومن هنا فقد كانت مهمتي شاقة غاية الشقة، فالترجمة موجهة الى قراء العربية ، ولهذا لم أدخر وسعا في تزويد الكتاب بالحواشي والتعليقات اللازمة للتعريف بالاعلام والقبائل والشعوب والمواقع الجغرافية والمصطلحات الفنية وتثبيت تواريخ الاحداث والوقائع التي أهملها المؤرخ اهمالا مطلقا • كما أنني لم أتردد في توضيح ما غمض على المؤرخ ، وتصحيح بعض وجهات نظر له لا تطابق الواقع التاريخي • ولهذا لم تكـن ترجمتي لكتاب « سيرة شارلمان » مجرد ترجمة لكتاب فحسب ، أو نقل كتاب من لغة أجنبية الى اللغة العربية ، وانما كانت في حقيقة الامر قراءة شاملـة ودقيقة لتاريخ أوربة في العصور الوسطى عامة وعصر شارلمان خاصة • وكل ما أرجوه أن تخرج هذه الترجمة أوفى ما تكون ، وأن يسهم هذا الكتاب في اغناء المكتبة العربية بمصدر هام حول تاريخ أوربة في العصور الوسطى •

والله ولـــي التوفيق

دمشق في ١/١٠/١٩٨٨

الدكتور عــادل زيتون

مقــدمـــة اينهــارد

لما كنت ندبت نفسي لسرد الحياة العامة والخاصة ، وجزء غير يسير من أعمال سيدي ، ووالدي بالتبني ، أكثر الناس تميزاً وأعظمهم شهرة ، بحــق ، الملك شارلمان[1] ، فقد كثفت المادة في صيغة موجزة الى أبعد حد ممكن • لقد كنت حريصاً على ألا أحذف أية حقائق تناهت الى علمي ، ولكنني كنت ، في الوقت ذاته ، حريصا على ألا أسيء الى تلك العقول ، التي تزدري كل ما هو حديث ، باستخدام أسلوب الاسهاب ، هذا فيما اذا كان باستطاعة المرء أن يتجنب الاساءة ، من خلال عمل جديد ، الى أناس يبدو أنهم يزدرون كذلك روائع العصور الخالية من أعمال أكثر الكتاب معرفة واستنارة • ولا شك في أن كثيراً منهم رجال وقفوا أنفسهم على حياة من الترف الادبي ، ويشعرون بأنه لا ينبغي لشؤون الجيل الحاضر أن تتجاوز ، ولا يحسبون أن كل عمــل ينجز اليوم غير جدير بالذكر وحري أن يترك للصمت والنسيان ، ولكنهم على الرغم من ذلك تغريهم شهوة الخلود بالاحتفاء بالاعمال المجيدة لعصور سالفة من خلال نوع ما من التأليف بدلا من حرمان الاجيال اللاحقة من ذكر أسمائهم لابتعادهم اطلاقا عن الكتابة •

---

(١) كان شارلمان معروفا عند معاصريه باسم كارلوس او كارل العظيم وتردد في اناشيد التروبادور باسم شارلمان ، وعرفه الانجليز دائما باسم شارلمان ، أيضا ، واطلق عليه المؤرخون العرب المسلمون اسم « قارله » . وعرفت الاسرة الشارلمانية في التاريخ باسم الاسرة الكارولنجية نسبة الى كارلوس. ولقــد استخدمت في الترجمــة اكثر اسمائه شهرة في التاريخ وهو اسم شارلمــان .

[المترجم]

وبصرف النظر عن هذه المسألة فانني لا أرى سببا يمنعني من الدخول في غمار مهمة من هذا النوع ، ما دام ليس في استطاعة انسان آخر أن يكتب بدقة ، أكثر مما أستطيع ، عن الاحداث التي وقعت حولي ، وعن حقائق أعرفها معرفة شخصية ، رأيتها رأي العين ، كما يقول المثل الشائع ، وليس لدي الوسيلة للتثبت من وجود شخص آخر يمكن أن يكون له مثل وقوفي على الموضوع •

وعلى أية حال فانني أفضل كتابة قصتي وتركها للاجيال القادمة ، شأنها في ذلك — إن جاز القول — شأن المؤلفات الاخرى التي تكتب عن شارلمان ، بدلا من أن أترك ظلام النسيان يلف الحياة الاكثر مجداً لأكثر الملوك تميزاً وأجل أمراء عصره ، ويلف أعماله الشهيرة التي يصعب على رجالات العصور اللاحقة أن يقلدوها •

ولكن تبقى هناك ، في رأيي ، أسباب أخرى أجدها مسوغة وكافية ، تحفزني على الكتابة في هذا الموضوع ، وهي بالتحديد الرعاية الدائمة التي أحاطني بها الملك شارلمان في طفولتي وصداقتي الدائمة له شخصيا ومن ثم لأولاده بعد أن استقر بي المقام في البلاط[1] • وبهذا جعلني شديد التعلق به، وصيرني مدينا له على نحو عظيم ، في حياته وبعد مماته ، حتى إنني لو أهملت ذكر المكارم التي أغدقها علي ، وبقيت صامتا ازاء أكثر الاعمال مجداً وشهرة لرجل يستحق مني الكثير،وسمحت لسيرته أن تمر دون المديح اللائق والتذكار المكتوب ، وكأنه لم يعش قط ، فانني سأبدو ، بحق ، ناكراً للجميل على الرغم من ضعف قدرتي على الفصاحة وضآلة ما أملك منهافهي،بحق،قريبة من لاشيء،

(١) عن حياة اينهارد والمناصب التي شغلها وعلاقته بشارلمان ولويس التقي انظر : مقدمة المترجم من هذا الكتاب .

وغير معدة لكتابة وتقديم سيرة من شأنها أن ترهق من كان في مثل فصاحة توليوس[1] .

إني أقدم هذا الكتاب ، وهو يحتوي تاريخ رجل عظيم ومتميز ، وليس فيه ما يبعث على العجب ، بالاضافة الى أفعاله ، الا حقيقة أني أنا البربري ، ذو التمكن المحدود بلغة الثقافة الرومانية ، افترض في نفسي القدرة على الكتابة

---

(١) هو ماركوس توليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero الخطيب الروماني المشهور . ولد عام ١٠٦ ق.م وقتل عام ٤٣ ق.م بأمر من القائد الروماني انطونيوس . كان شيشرون من أعظم الخطباء وكتاب النثر قاطبة في القرن الأخير للجمهورية الرومانية . درس الخطابة والفلسفة في رومة واثينة وآسية الصغرى ورودس على يد أساتذة الخطابة والفلاسفة البارزين في عصره . مارس المحاماة حتى عام ٥٢ ق.م . وعمل في سلك الوظائف العامة الى أن كللت جهوده بتولي القنصلية عام ٦٣ ق.م . كان شيشرون من أبرز الداعين للحفاظ على الجمهورية الرومانية . ابتعد شيشرون عن الساحة السياسية بعد انتصار يوليوس قيصر ، غير أنه عاد اليها ثانية بعد اغتيال الأخير عام ٤٤ ق.م . وقد القى شيشرون خطبا ضد أنطونيوس وصفه فيها بالاستبداد والطغيان . غير أنه عندما تسلم انطونيوس وأوكتافيوس زمام الامور في رومة سقط شيشرون في حملة الملاحقة التي طالت الخصوم السياسيين من انصار الجمهورية السابقة وأعدم في الاول من كانون الاول من عام ٤٣ ق.م بأمر من انطونيوس . ولشيشرون مؤلفات عديدة تشمل خطبا ورسائل ومؤلفات بلاغية وفلسفية ، ومن أشهر كتبه « جمهورية شيشرون » . انظر تفاصيل أكثر عن حياة شيشرون عند: ابراهيم نصحي : تاريخ الرومان ، الجزء الثاني ، ص ٧٧٨ وما بعدها، امين سلامة : التاريخ الروماني ، ص ٣٥٢ ــ ٣٥٥ ، دولي : حضارة روما (الترجمة العربية)، ص ١٩٢ ــ ١٩٣ .

[المترجم]

برشاقة وجدية باللغة اللاتينية[1] ، وأمضي في هذا الافتراض الى درجة ازدراء رأي شيشرون الذي ذكره في الكتاب الاول من « المناظرات التسكولونية »[2]، عند حديثه عن المؤلفين اللاتين ، حيث قال : « انه لمن قبيل اساءة الاستخدام الصارخة للوقت والأدب معاً أن يدوّن الرجل أفكاره دون أن يملك القدرة الكافية سواء على ترتيب هذه الافكار أو توضيحها أو اجتذاب القراء بلون من سحر الاسلوب » . ولربما كان هذا القول المأثور ، للخطيب الشهير ، خليقاً أن يجعلني أحجم عن الكتابة لو أني لم أكن قد قررت أنه من الافضل لي أن أجازف بتحمل أحكام العالم وأن أخضع مواهبي البسيطة في التأليف للاختبار بدلاً من أن أستخف بذكرى رجل عظيم كهذا من أجل إيثار السلامة .

---

(١) كتب أينهارد « سيرة شارلمان » باللاتينية الكلاسيكية مقلداً أسلوب شيشرون . وهذه اللاتينية تختلف عن لاتينية العصور الوسطى التي سادت عصر أينهارد . ولاتينية العصور الوسطى هي اللاتينية الكلاسكية وقد تطرقت اليها الالفاظ العامية أو الدارجة فضلا عن مصطلحات جرمانية ومسيحية . ولاتينية العصور الوسطى هي اللغة التي اشتقت منها فيما بعد اللغات الرومانسية في أوربة كالفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية . [المترجم]

(٢) المناظرات التسكولونية هي الاعمال الفلسفية التي تركها الاديب والخطيب الروماني شيشرون (١٠٦ — ٤٣ ق.م) ، وذلك نسبة الى استراحته الواقعة قرب قرية توسكولانوم في الجنوب الشرقي من مدينة رومة . وقد عالج شيشرون في هذه المناظرات مسائل اخلاقية وفلسفية متأثراً بتعاليم الفلسفة الرواقية . وتعرض شيشرون ، في هذه المناظرات ، الى قضايا الحياة والموت والكون والاخلاق والآلام وغيرها من الموضوعات التي تنتاب النفس البشرية في الشدائد . كما بحث شيشرون في هذه المناظرات كل ما هو أساسي وضروري للوصول الى السعادة الحقة . وكان اهتمامه فيها منصباً على تهدئة شكوكه ومخاوفه الذاتية وفقاً للتعاليم الرواقية . وتتميز هذه المناظرات بأسلوبها اللاتيني الناصع ولغتها الشاعرية الجميلة . انظر:
Oxford Classical Dictionary, Art. « Cicero » .

سيرة شارلمان

الفصل الأول

البيــت الميروفنجــي

إن الأســرة الميروفنجيــة The Merovigian [(١)] التي اعتاد الفرنجــة Franks [(٢)] ــ انتخاب ملوكهم منها ــ استمرت ، كما يقال عموما ، حتى عهد شيلدريك Childeric [(٣)] الذي عُزل عن العرش وحُلق شعره[(٤)] وزُج بــه في

---

(١) عن الاسرة الميروفنجية انظر مقدمة المترجم من هذا الكتاب .

(٢) عن الفرنجة وتسللهم عبر الحدود الرومانية واستيطانهم داخــل الاراضي الامبراطورية انظر : مقدمة المترجم من هذا الكتاب ، ومن أجل تفاصيل أكثر انظر : Lasko, P., The Kingdom of the Franks, (London, 1971), PP. 13-14 Stephenson, c., Medieval History, (Washington, 1977), PP. 154-155

(٣) المقصود شيلدريك الثالث الذي اعتلى العرش الفرنجي عام ٧٤٣ م وعزل عام ٧٥١م من قبل رئيس البلاط الفرنجي آنذاك وهو بيبن القصير. وبذلك يعتبر شيلدريك هذا آخر ملوك الفرنجة من الاسرة الميروفنجية ، في حــين يعتبر بيبن القصير أول ملــوك الفرنجــة (٧٥١ ــ ٧٦٨ م) مــن الاسرة الكارولنجية . حول ذلك انظر :

Painter, S., A History of Middle Ages, (London, 1973), P. 71.

[المترجم]

(٤) من المعروف ان الذكور من أفراد البيت الميروفنجي حرصوا أشد الحرص على أن يجعلوا شعورهم تنسدل على اكتافهم للدلالة على انحدارهم من ميروفتش (اله البحر) ، وبالتالي فقد كانوا كهنة لقومهم . وهذا هو السر فيما اشتهروا به من الشعور المتهدلة. وجرى العرف الفرنجي على الاهتمام بشعر الملك الطويل الذي كان لا ينبغي ان يقص إلا إذا فقد الملك سلطانــه كرهاً . انظر ديفز : شارلمان (الترجمة العربية) ، ص ٢٦ ، ح١ .

[المترجم]

الدير بأمر من الحبر الروماني ستيفن Stephen [(1)].

ولكن على الرغم من أن الاسرة الميروفنجية قد انتهت ــ كما بدا ظاهرياً ــ بشيلدريك ، فانها كانت قد فقدت سلطانها الفعلي منذ أمد بعيد ، فلم يبق لها سوى لقب ملكي أجوف ، وذلك لأن القوة والسلطة الحقيقيتين في المملكة قد أصبحتا في أيدي الموظف الرئيسي في البلاط ، المدعو باسم « رئيس البلاط » Mayor of Palace [(2)]، وهو الذي كان المسؤول الرئيسي عن شؤون المملكة.

---

(١) يخطىء اينهارد في هذه المسألة ، ذلك أن الذي أمر بخلع شيلدريك الثالث عام ٧٥١ م هو البابا زكريا (٧٤١ ــ ٧٥١ م) وليس البابا ستيفن (الثاني) (٧٥٢ ــ ٧٥٧ م) . ذلك أن بيبن القصير ، رئيس البلاط في المملكة الفرنجية ، كان قد بعث ، عام ٧٥١ م ، سفارة الى البابا زكريا في رومة يسأله : هل من العدل أن يتمتع شخص بلقب ملك اذا كانت بيده السلطة الحقيقية في المملكة ؟. فأجاب البابا بالايجاب . وعندئذ عقد بيبن القصير اجتماعاً لمجلس نبلاء الفرنجة في مدينة سواسون (عام ٧٥١ م) حيث أعلن فيه انه وفقا لأوامر البابا تقرر أن يطلق على نفسه لقب « ملك الفرنجة » . ثم جلب شيلدريك الثالث وأدخل الى دير القديس بيرتن . وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية واعتلى العرش أسرة فرنجية جديدة هي الاسرة الكارولنجية . انظر تفصيل ذلك عند: فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ج١ ، ص ٨٤ ، أيضا . Painter, P. 75; Stephenson, P. 171. [المترجم]

(٢) لقد ترجم منصب Mayor of Palace بمحافظ القصر أو ناظر القصر أو حاجب القصر أو عمدة القصر أو وزير أو أمير القصر . غير أن الدراسات الحديثة ترى في استخدام مصطلح « رئيس البلاط » أفضل تعبير عن هذا المنصب . ورئيس البلاط ، في حقيقته ، هو زعيم النبلاء وأكبر ملاك الاراضي في المملكة الفرنجية ، وقد شق طريقه الى البلاط الملكي بثروته ونفوذه . وتجدر الاشارة الى ان منصب رئيس البلاط كان في البداية منصباً متواضعاً يشمل الاشراف على خدم القصر وموظفيه وعلى الضياع الملكية . ولكن مع انحلال المملكة الميروفنجية ازدادت اهمية هذا المنصب واصبح صاحبه هو الوزير الاول في البلاط والوصي على المملكة والنافذة التي يطل منها النبلاء على البلاط الملكي ومناصبه ، وصاحب القرار الحاسم فيما يتعلق بمنح الالقاب والوظائف الملكية ، بل أصبح رئيس البلاط ، في أواخر العصر الميروفنجي ، هو الحاكم الحقيقي في المملكة ، وتحول الملوك الى مجرد دمى في أيدي رؤساء البلاط . وقد بين أينهارد هذه المسألة في المتن بوضوح كامل . [المترجم]

لم يعد للملك الميروفنجي من صلاحيات في المملكة ، وانما كان عليه أن يقنع باللقب الملكي ، وشعره المتهدل ، ولحيته الطويلة ، وأن يجلس على عرشه ويمثل دور الحاكم الحقيقي ، فيصغي للسفراء الوافدين عليه من كل الارجاء ويصرفهم بكلمات فرضت عليه ، وبطريقة رسمت له ، وكأنه كان يمضي بارادة حرة واحساس كامل بالسلطة والتبعة .

لم يكن للملك الميروفنجي شيء يستطيع أن يدعيه لنفسه سوى هذا اللقب الملكي الاجوف ، وشيء غير ثابت من السلطان الذي يسمح له به رئيس البلاط وفق ما يراه مناسبا . ولم يكن للملك من الممتلكات سوى مقر ريفي لا يعطيه سوى دخل ضئيل . وفي هذا المقر منزل ألحق به عدد صغير من الخدم كاف لتأدية الاعمال الضرورية .

وقد اعتاد الملك الميروفنجي ركوب عربة يجرها ثوران يسوقهما أحد الفلاحين ، على النحو المألوف في عربات المزارعين ، حينما يسافر الى الخارج أو يتوجه الى القصر أو الى المجلس العام للشعب[1] ، الذي كان يعقد مرة واحدة في السنة ، من أجل مناقشة المصالح العامة للمملكة ، وكان يعود على هذه الهيئة من حيث أتى . أما رئيس البلاط فقد كان مسؤولا عن الحكومة وعن كل شيء يتطلب تخطيطا أو تنفيذاً في الداخل أو في الخارج .

★ ★ ★

---

(١) المجلس العام للشعب أو المملكة كان بمثابة مجلس استشاري ينعقد سنوياً أو وفقاً لارادة الملك. وكان يتألف من كبار رجال الدولة الفرنجية ومندوبين عن مختلف انحاء المملكة والشعوب التي تخضع للفرنجة ، فضلا عن الاساقفة ورؤساء الاديرة والكونتات . ويبدو أنه ليس هناك مكان محدد وثابت لعقد هذا المجلس ، ففي عام ٨٠٦م مثلاً، عقد شارلمان المجلس العام للشعب في سكسونية وليس في العاصمة اكس لا شابيل .
[المترجم]

الفصل الثاني

أجـــداد شارلمـان

عندما نُحيّ شيلدريك عن العرش تولى بيبن (القصير) Pepin the Short [(١)] والد الملك شارلمان ، منصب رئيس البلاط ، وكأن ذلك كان بموجب حقه في الوراثة . فوالد بيبن (القصير) : شارل (مارتل) Charles Martel [(٢)] ، كان

---

(١) عن اعتلاء بيبن القصير العرش الفرنجي . انظر الفصل الاول مـن هـذا الكتاب . [المترجم]

(٢) لقد لقب شارل هذا بلقب « مارتل » اي « شارل المطرقة » لانه دحر اعداء الفرنجة . واطلق العرب المسلمون عليه اسم « قارله » ، وهو والد بيبن القصير ، والمؤسس الحقيقي للدولة الفرنجية الكارولنجية . وكان قـد تسلم رئاسة البلاط في المملكة الميروفنجية من والده بيبن هريستال في الفترة الواقعة ما بين عام ٧١٤ م و ٧٤١ م . وكان لشارل مارتل ، أثناء رئاسته للبلاط، السلطة المطلقة في المملكة، بحيث لم يكن ينقصه سوى اللقب الملكي . ويبدو انه كان يفكر في عزل الملك الميروفنجي واعتلاء العرش ، ولكنه كان بحاجـة الى دعم البابوية لتنفيذ هذا المشروع . وعلى الرغم من أن شارل مارتل قد ساند القديس بونيفاس على تحويل الجرمان النازلين وراء الراين مـن الوثنيـة الـى المسيحية الكاثوليكية وتنظيـم كنيستهـم إلا أن تردي العلاقة بينه وبين البابوية لم يمكنه من طلب الدعم منها لمشروعه . ذلك أن شارل مارتل رفض مساعدة البابوية ضد اللومبارديين ، بسبب أن هؤلاء كانوا متحالفين معه في صراعه مع العرب المسلمين في اسبانية ، هذا فضلا عن أن شارل مارتل كان قد اقدم على انتزاع جانب كبير من اراضي الكنيسة في غالية لاعداد جيش من الفرسان لمواجهة العرب في اسبانية . وهذا كله جلب على شارل مارتل غضب البابوية ونقمة رجال الدين ، وبالتالي جعله يحجم عن تنفيذ مشروع أعتلاء العرش الفرنجي . انظر تفصيل ذلك عند : موس : ميـلاد العصور الوسطـى ، ص ٣١٨ ، عاشور : أوربـا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ١٥٦ ، ايضا : Stephenson, P. 171 [المترجم]

قد تسلّم هذا المنصب بدوره من يد والده المسمى بيبن أيضا[١] ، وشغلـه بكفاءة ممتازة .

وكان شارل (مارتل) هذا هو الذي سحق الطغاة الذين ادعوا الحق في حكم أرض الفرنجة كلها كما لو أنها من أملاكهم الشخصية[٢] ، وهو نفسه الذي هزم المسلمين هزيمة ساحقة ، عندما حاولوا فتح غالية ، وذلك في معركتين كبيرتين ، الاولى في أقطانيـة Aquitania [٣] بالقرب من مدينة بواتييـه

(١) المقصود هنا بيبن هريستال المعروف في المراجع باسم بيبن الثاني والذي كان قد تسلم رئاسة البلاط في المملكة الميروفنجية ما بين ٦٨٧ ـ٧١٤ م ، وسلب الملوك الميروفنجيين سلطاتهم . ولم يترك بيبن هذا عند وفاته ، عام ٧١٤ م ، ابناء شرعيين يخلفونه في رئاسة البلاط وانما خلفه ابنـه غـير الشرعي وهو شارل مارتـل (٧١٤ ـ ٧٤١ م) . انظر : فشر ، ج١ ، ص ٧٧ ايضا . Boussard, The Civilisation of Charlemagne, P. 20 .

[المترجم]

(٢) يبدو أن المقصود من اشارة اينهارد الى الطغاة هو الفتن الداخلية التـي واجهت شارل مارتل والتنافس الطويل بين رؤساء البلاط في نوسترية وأوستراسية ، ومن المعروف أن شارل هذا استخدم قوة أوستراسيـة للقضاء على العصاة النوستريين ، وتبنى سياسة تقضي بعزل الكونتات والادواق المحليين واحلال رجال يثق بهم محلهم . انظر: موس : ص٣١٥ ، Painter, P. 69 .

[المترجم]

(٣) اقطانية أو اكويتانيا هي مقاطعة في الجنوب الغربي من فرنسة، وتقع مابين نهر اللوار شمالا والجارون جنوبا والرون شرقا وخليج بسكاي غرباً . وكان الرومان قد اخضعوا هذه المنطقة عام ٥٦ ق.م ، واستولى عليهـا القوط الغربيون عام ٤١٨م، وانتزعها منهم كلوفيس عام ٥٠٧م، واصبحت دوقية مستقلة في القرن السابع الميلادي ، وكانت اهم مدنها : بواتييـه وبوردو وطولوز . انظر :
Moore, The Penguin Encyclopedia of Places, P. 44 .

[المترجم]

Poitiers [1]والاخرى على ضفة نهر بير Berre [2] ، بالقرب من ناربونة

---

(١) كان العرب المسلمون قد فتحوا اسبانية (عام ٧١١ م) ، واخترقوا جبال البرانس ، وفتح السمح بن مالك الخولاني مدينة ناربونة ، عاصمة اقليم سبتمانية ، التابعة للقوط الغربيين ، عام ٧٢٠ م ، حيث استخدمها العرب المسلمون قاعدة حربية لمهاجمة مملكة الفرنجة في غالية . وعلى الرغم من أن أودو ، صاحب أقطانية (ت ٧٣٥ م) قد نجح في صد الزحف العربي عدة سنوات ، غير أن عبد الرحمن الغافقي ، والي الاندلس ، الحق هزيمة ساحقة بأودو وفتح بوردو ومر ببواتييه وزحف شمالا نحو تور. فاستنجد أودو بشارل مارتل ، الذي لبى النداء رغبة في صد الخطر العربي عن بلاده من ناحية وطمعا في الاستيلاء على أراضي أودو من ناحية أخرى . ودارت معركة طاحنة ، بين شارل مارتل والغافقي ، في السهل الواقع ما بين تور وبواتييه ، عرفت بمعركة بواتييه أو تور ، وهي معركة بلاط الشهداء المشهورة في التاريخ العربي الاسلامي لكثرة ما استشهد فيها من العرب المسلمين . ولقد دامت هذه المعركة سبعة أيام من شهر تشرين الاول عام ٧٣٢ م / ١١٤ هـ ، وانتهت باستشهاد الغافقي وهزيمة القوات العربية الاسلامية . وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ نظراً لما ترتب عليها من نتائج في مقدمتها وضع حد للفتوحات العربية الاسلامية خلف جبال البرانس ، هذا فضلا عن أن هذا الانتصار جعل شارل مارتل بطل أوربة دحاميها . انظر تفاصيل أكثر عن هذه المعركة ونتائجها عند : أخبار مجموعة ، ص ٢٥ ، عنان : دولة الاسلام في الاندلس، ج١، ص١٠٠ وما بعدها ، فروخ : العرب والاسلام في الحوض الغربي من المتوسط ، ص ١١٥ — ١١٦ ، لوبون : حضارة العرب ، ص ٣٨٨ ، الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس ، ص ٢٢٧ وما بعدها . [المترجم]

(٢) لم تمنع هزيمة بلاط الشهداء (بواتييه) العرب المسلمين من أن يستأنفوا فتوحاتهم في فرنسة ، فقد عاد الصراع بين العرب والفرنجة مرة أخرى ، والمعركة التي يشير اليها أينهارد في المتن هي تلك التي وقعت بين الجيش العربي الاسلامي الذي كان قد بعثه والي الاندلس آنذاك ، عقبة بن الحجاج السلولي ، لصد شارل مارتل عن احتلال مدينة ناربونة ، التي كانت معقلا أساسياً للعرب في جنوب فرنسة . ودارت هذه المعركة في ربيع ٧٣٧ م =

Narbonne [1] وأجبر المسلمين على التراجع الى اسبانية .

ومنصب رئيس البلاط كان يمنحه الشعب عادة لأولئك الاشخاص الذين يتميزون بكرم محتدهم ووفرة ثروتهم .

وفي ظل الحكم الاسمي لشيلدريك تقاسم بيبن (القصير) ـــ والد الملك شارلمان ـــ مع شقيقه كارلومان ، طوعاً ، ولبضع سنوات ، أعباء منصبه الذي كان قد ورثه عن والده وجـــده . غـــير أن هذا الاخير (كارلومان) سرعان ما تخلى ـــ لأسباب غير معروفة ـــ عن الاعباء الثقيلة المتعلقة بالحكم الدنيوي، وانسحب الى رومه[2] ، حيث استبدل بملابسه الدنيوية مسوح الراهب، وبنى

= (١١٩ هـ) على ضفاف نهر بير في وادي كوربيير Corbiere ، على مسافة بضعة فراسخ من ناربونة . وعلى الرغم من أن النصر فيها كان حليف الشارل مارتل إلا أن الأخير لم يتمكن من الاستيلاء على ناربونة نتيجة لصمود حاميتها وبسالتها، وأخيراً اضطر شارل مارتل الى رفع الحصار عنها عائداً الى بلاده دون تحقيق أهدافه . انظر تفاصيل أكثر عند : عنان : ص ١١٥ ، رينو : ٧٧ ـــ ٧٨ ، لوبون : ص ٣٨٧ ، الصوفي : ص ٣٣٥ ، طرخان : المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ، ص ١١٩ . [المترجم]

(١) ناربونة : مدينة تقع في الجنوب الشرقي من فرنسة ، على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول مستعمرة رومانية في بلاد الغال . في عـــام ٤٦٢ م اصبحت عاصمة للقوط الغربيين . فتحها العرب المسلمون عام ٧٢٠م وقد أطلق الجغرافيون العرب عليها اسم « أربونة » ، انظر الحميري : الروض المعطار ، ص ٢٤ ، رينو : ص ٩١ ـــ ٩٤ . [المترجم]

(٢) لقد دام حكم الاخوين (بيبن القصير وكارلومان) ست سنوات (٧٤١ ـــ ٧٤٧ م) تخلى بعدها كارلومان عن مسؤولياته ، وانقطع ، عام ٧٤٧ م ، لحياة الرهبنة ، في دير مونت كاسينو ، تاركا أطفاله في حماية أخيه الذي انفرد عندئذ برئاسة البلاط في المملكة الفرنجية كلها . انظر :
Pirenne, H., Mohammed and Charlemagne, P. 209; Boussard, P. 24 .

[المترجم]

ديـراً على جبــل أوريست Oreste ، بالقرب من كنيسة القديس سيلفستر St. Sylvester حيث تمتع ، لعدة سنوات، بحياة العزلة التي كان يؤثرها، والتي صحبه فيها عدد قليل ممن شاركوه في هذه الرغبة . غير أن عدداً غفيراً مــن الفرنجة البارزين ، الذين كانوا يقومون بالحج الى رومة ، لايفاء نذورهم ، كانوا ــ وهم في طريقهم الى رومة ــ يصرّون على زيارة كارلومان ، لتأكيــد احترامهم له باعتباره سيدهم السابق . فأفسدت هذه الزيارات المتكررة حياة السكينة التي كان يؤثرها كثيراً ، مما اضطره الى تبديل مقر واقامته ، فترك الجبل وانسحب الى دير القديس بندكتSt. Benedict [1]، على جبل كاسينو Monte Cassino[2] ، الواقع في اقليم سامنيومSamnium [3] ، حيث أمضى

---

(١) ولد القديس بندكت عام ٤٨٠ م في بلدة اسبوليتو Spoleto الايطالية ، من أبوين كانا من طبقة الاشراف الرومانية . ولما أرسل الى رومة ليتعلم هاله ما رآه فيها من انحلال أخلاقي ، فغادرها الى منطقة سوبياكــه Subiaca الواقعةوسط ايطالية ، حيث بدأ حياته راهبا متوحداً في أحد الكهوف . وفي عام ٥٢٩ م أسس بندكت ديره الاول في مونت كاسينو ، ووضع نظاما محدداً لأتباعه الرهبان يقوم على أربع قواعد : التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء . وسرعان ما انتشرت الأديرة البندكتية في الغــرب الاوربي،ولعبت دوراً حضارياً كبيراً في المجتمع الاوربي في العصور الوسطى انظر تفاصيل اكثر عند :

Piernne, P. 126 ; Painter, PP. 72-73 ; Stephenson, P. 87 .

[المترجم]

(٢) مونت كاسينو عبارة عن تل يقع على ارتفاع ١٧١٥ م عن سطح البحر ، في منتصف الطريق بين رومة ونابولي . وقد تعرض دير مونت كاسينو الى الدمار أربع مرات ، المرة الاولى على يد اللومبارديين عام ٥٨١ م ، وآخرها خلال الحرب العالمية الثانية ، وذلك عندما انصب عليه وابل من قذائف الحلفاء، عام ١٩٤٤ م. وقد رممت مباني الدير ترميماً كاملا في الستينيات من القرن العشرين . انظر :

Cantor, The Medieval History, P. 164 ; Moore, P. 524 .

[المترجم]

(٣) سامنيوم منطقة الى الشرق من كامبانية في ايطالية . كــان سكانها ، في العصور القديمة ــ السامنيون ــ من ألد أعداء رومة،التي دخلت معهم =

هناك بقية أيام حياته في ممارسة الشعائر الدينية[1] .

* * *

= في حروب طويلة ، حتى تم اخضاعهم حوالي عام ٢٩٠ ق.م . وقد تعاون هؤلاء السكان مع هانيبال أثناء وجوده في ايطالية خلال الحروب البونية الثانية . وقد خسر السامنيون مكانتهم بعد انتهاء تلك الحروب . انظر :
Classical Dictionary' Art. « Sammnium, » .

[المترجم]

(١) تشير احدى الروايات الى أن الملك اللومباردي، أيستولف، حمل كارلومان على مغادرة دير مونت كاسينو ليذهب الى غالية ويعمل مع المعارضة على منع أخيه بيبن القصير من القيام بحملته ضد اللومبارديين. ولكن تم القبض على كارلومان ووضع في أحد أديرة غالية حتى وفاته ، كما اضطر أولاده الى أن يعيشوا رهبانا . انظر : حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوربا، ص ٩٦ . [المترجم]

الفصل الثالث

اعتلاء شارلمان العرش

وعلى أية حال فقد نُصّب بيبن (القصير) ، رئيس البلاط ، ملكاً بقرار من الحبر الروماني ، وانفرد بحكم الفرنجة كلهم مدة خمس عشرة سنة أو أكثر(1) ، وتوفي بيبن (القصير) في باريس بداء الاستسقاء وذلك عند نهاية الحرب الأقطانية ، التي كان قد شنها ضد وليام William ، دوق أقطانية ، لمدة تسع سنوات متتالية (2) ، وتـرك بيبن (القصير) ولدين همـا : شارلمـان

(1) كانت فترة حكم بيبن القصير بعد تتويجه ملكا على الفرنجة أكثر من ستة عشر عاماً ، وذلك من عام ٧٥١ م حتى عام ٧٦٨ م . انظر : Painter, P. 75
[المترجم]

(2) يخطىء اينهارد في هذه المسألة ، ذلك ان دوق أقطانية وقتذاك لم يكن وليام وانما وايفر Waifar حفيد أودو . ومن المعروف أن دوقية أقطانية ظلت — بعد أن انقذها شارل مارتل من العرب المسلمين — من اشد ممتلكات الفرنجة اضطرابا ، فبعد وفاة أودو ، عام ٧٣٥ م ، غزا شارل مارتل أقطانية وأقام هونولد بن أودو دوقا عليها خلفا لأبيه ، على أن تكون أقطانية تابعة لمملكة الفرنجة . وأقسم هونولد يمين الولاء له وصار بذلك فصلا تابعا لسيد الفرنجة . ولكن بعد وفاة شارل مارتل عام ٧٤١ م ثار هونولد ضد التبعية للفرنجة . غير أن الاخوين ، بيبن القصير وكاراومان ، استطاعا ، في العام التالي (٧٤٢ م) اخضاع الاقطانيين ، ولجأ هونولد الى أحد الاديرة وتسلم الدوقية ابنه وايفر . وفي البداية أعلن الاخير خضوعه وتبعية دوقيتـه للفرنجة غير انه سرعان ما وضع يده على ممتلكات الكنائس الفرنجيـة في أقطانية ، وقام بحماية أخ غير شقيق لبيبن القصير اسمه غريفون ، وهذا كله أدى الى اندلاع الحرب بين الفرنجة والاقطانيين (٧٦٠ — ٧٦٨) ولم يستطع بيبن القصير القضاء على وايفر الا عندما وقع الاخير أسيراً بيده ، عام ٧٦٨ م ، والذي قام بقتله وتوزيع أراضي أقطانية بين عدد من ضباطه ومنح كل منهم لقب « كونت » . انظر تفصيل ذلك عند : ديفز : ص ٤٩ ، حاطوم : ص ٨٨ ، اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانيـة ، ص ٢٠٣ ، Pirenne, P. 207 .
[المترجم]

وكارلومان ، اللذين انتقل اليهما العرش ، فيما بعد ، بنعمة الله[1] .

وفي المجلس العام للشعب ، جعل الفرنجة شارلمان وكارلومان ملكين ، شريطة أن يقتسما المملكة كلها بالتساوي بينهما ، بحيث يحكم شارلمان القسم الذي كان يخص والدهما بيبن (القصير) ، في حين يستقل كارلومان بالقسم الذي كان يحكمه عمهما كارلومان ، واتجه كل منهما الى المنطقة التي حددت له من المملكة وفقا لهذه الاتفاقية[2] .

ولكن التفاهم بينهما كانت تعتريه صعوبات بالغة ، لأن عدداً من أنصار كارلومان كانوا يحاولون ، دائما ، تعكير الود القائم بينهما ، حتى إن بعضاً من هؤلاء تآمر لتوريط أحدهما في الحرب ضد الآخر[3] .

---

(١) توفي بيبن القصير عام ٧٦٨ م وترك ولدين هما : شارلمان وكارلومان . وكان لهما أخ ثالث يدعى بيبن مات طفلا ، كما ترك بيبن القصير ابنة واحدة هي جيزلـه . [المترجم]

(٢) حول تقسيم المملكة انظر مقدمة المترجم من هذا الكتاب . [المترجم]

(٣) إن أطماع الاخوين ، شارلمان وكارلومان ، بأملاك بعضهما جعلت النزاع بينهما أمراً وشيك الوقوع ، فهما من أم واحدة اسمها برثرادة . وكان كارلومان وقتذاك في السادسة عشرة من عمره ، بينما كان شارلمان في السادسة والعشرين . ولم يكن كارلومان إلا صبياً في عمره وامكاناته ، سريع الاثارة ، ووقع فريسة سهلة في أيدي المتملقين الذين ذكروا له أنه هو الابن الشرعي لبيبن القصير ، وله الحق في أن يحوز كل المملكة لا نصفها باعتبار أن شارلمان ولد قبل أن تعترف الكنيسة بزواج والديه بيبن القصير وبرثرادة ، ولهذا أخذ كارلومان يزعم لنفسه الحق في أن ينال المملكة كلها . انظر تفصيل ذلك في : Cam. Med. Hist., II, PP. 594-9 ، أيضا عند Painter, PP. 75-76 ; ، ديفز : ص ٦٤ ، ديورانت : قصة الحضارة ، ج ١٤ ، ص ٢٢٦ .

غير أن المخاوف من النزاع بين الأخوين كانت وهمية أكثر منها حقيقية فعند وفاة كارلومان[1] هربت أرملته[2] الى ايطالية وبصحبتها أبناؤها وكبار مؤيديها ، وقامت ، دون سبب ، ورغما عن ارادة شقيق زوجها (شارلمان) ، بوضع نفسها وأولادها[3] تحت حمايــة ملك اللومبارديــين The Lombards ديسيدريوس[4] .

---

(١) توفي كارلومان عام ٧٧١ م . انظر : Boussard, P. 24 . [المترجم]

(٢) تؤكد الدراسات المتخصصة أن اسم أرملة كارلومان هو جربرجة Gerberga وقد اجتازت جبال الالب في زمهرير شتاء عام ٧٧١ م ، ووصلت الى بلاط الملك اللومباردي ديسيدريوس ، في بافية ، وفي صحبتها الابن الوحيــد لكارلومان واسمه بيبن . انظر: Painter, P. 76 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 596

[المترجم]

(٣) انقسم الباحثون ازاء هذه المسألة ، فبعضهم أخــذ برواية أينهارد بــأن كارلومان ترك عدة أولاد ، في حين يرى البعض الآخر بأن كارلومان لم يترك الا ابناً واحداً اسمه بيبن . حول هذه المسألــة انظر : اسحق عبيــد : ص ٢٠٤ ، ديفز : ص ٦٥ ، Cam. Med. Hist., 11, P. 596 ; Painter P. 76

[المترجم]

(٤) اللومبارديون هم من الشعوب الجرمانية التي هاجمت القسم الغربي مــن الامبراطورية الرومانية ، وقد تدفقوا ، عبر جبال الالب ، الى الشمــال الايطالي ، تحت قيادة ملكهم البوين Alboin عام ٥٦٨ م ، وأقاموا مملكة لهم على حساب الممتلكات البيزنطية في شمال ايطالية ، واتخذوا من مدينة بافية الحصينة عاصمة لهم . وقــد تبنى المــلوك اللومبارديون سياســة توسعية استهدفت الاستيلاء على شبه الجزيرة الايطالية كلها، وابرز هؤلاء المــلوك : ليتوبرانــد Liutprand (٧١٢ – ٧٤٤ م) وايستولــف Aistolf (٧٤٤ – ٧٥٦ م) وديسيدريوس Desiderius (٧٥٦ – ٧٧٤م) . وسياسة التوسع اللومباردية شكلت خطراً حقيقياً على البابوية وممتلكاتهافي ايطالية، وبالتالي فقد اتجه البابوات نحو الملوك الفرنجة لحماية أنفسهم من اللومبارديين . وعندما التجأت أرملة كارلومان ، جربرجة ، الى بافية تطلب المساعدة من اللومبارديين ضد شارلمان ، ادرك ديسيدريوس ما سوف يلحق بمملكتــه من أخطار نتيجة اتحاد مملكة الفرنجة تحت زعامة شارلمان ، ولهذا وعد =

وبعد سنتين من مشاركة كارلومان لأخيه (شارلمان) في الحكم[1] ، وقع فريسة للمرض ، وعنـد موته ، انتخب شارلمـان ، بالاجماع ، ملكا علـى الفرنجـة[2] .

★ ★ ★

= بتأييد دعادى بيبن بن كارلومان في الحصول على نصيبه في المملكة الفرنجية . انظر تفاصيل ذلك عند :

Cam. Med. Hist., 11, PP. 201-202 ; Pirenne, A Hist. of Europe, P. 44 ;

ايضا : ديفز : ص ٦٦ . ; Painter, PP. 75-76 [المترجم]

(١) يبدو هنا أن أينهارد لم يكن دقيقا في تحديده للفترة الزمنية التي حكم فيها كارلومان شريكا لأخيه شارلمان بسنتين ، ذلك انها كانت في الواقع أكثر من ثلاث سنوات ، وهي ما بين ٧٦٨ – ٧٧١ م . حول هذه المسألة انظر : فشر : تاريخ أوربا العصور الموسطى ، ج١ ، ص ٨٥ ، أيضا انظر :

Boussard, P. 24 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 496 ; Painter, P. 76 .

[المترجم]

(٢) اعتلى شارلمان العرش الفرنجي شريكا لأخيه كارلومان عام ٧٦٨ م ، ثم انفرد بالعرش منذ عام ٧٧١ م حتى وفاته عام ٨١٤ م .

[المترجم]

الفصل الرابع

منهـــج الكتـــاب

من خطل الرأي أن نكتب كلمة تتعلق بمولد شارلمان وطفولته أو حتى صباه ، وذلك لأنه لـم يكتب شيء عن هذا الموضوع ، وليس هنالك أحد على قيد الحياة الآن بمقدوره أن يقدم معلومات حول هذه الأمور[1] • ولهذا فقد قررت أن أتجاوز هذا الموضوع باعتباره غير معروف ، وأنتقل مباشرة الـى الحديث عن شخصية شارلمان وأعماله ، وغيرها من الحقائق المتعلقة بحياتـه والجديرة بالسرد والتقديم •

وسأقدم ، في البداية ، وصفا لأعماله ، في الداخل والخارج ، ثم أتحدث عن شخصيته ونشاطاته ، وأخيراً عن إرادتـه ووفاته ، دون أن أغفـل جانباً يستحق أن نعرفه أو من الضروري معرفته •

★ ★ ★

---

(١) اختلفت الروايات المتعلقة بزمان ومكان مولد شارلمان ، فرواية تقول إنـه ولد عام ٧٤٢ م في مدينة اكس لا شابيل • ورواية أخرى تشير الى أنه ولد عام ٧٤٣ م في مكان غير معروف • ويستنتج مما أورده أينهاردنفسه في الفصول التالية من هذا الكتاب ، وبخاصة الفصل المتعلق بتتويج اويس ووفاة شارلمان ، والفصل المتعلق بدفن شارلمان ، أن شارلمان ولد في اليوم الثاني من شهرنيسان عام ٧٤٢م•ولا يستبعد أن يكون المؤرخون المعاصرون قد مروا على هذه المسألة مرور الكرام لأن شارلمان يعتبر ــ كما أشرنـا سابقا ــ من وجهة نظر الكنيسة ابنا غير شرعي ، ذلك انه ولد قبل أن يتم عقد الزواج بين والده بيبن القصيروالدته برثرادة،وفقا للقوانين الكنسية، أي قبل أن تعترف الكنيسة بهذا الزواج • عن ذلك كله انظر :
Fichtenau, The Carolingian Empire, PP. 39, 72 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 595 .

[المترجم]

الفصل الخامس

الحـرب الأقطانيـة

لقد كان المشروع الاول الذي اضطلع به شارلمان على الصعيد الحربي هو الحرب الاقطانية التي كان قد بدأها والده ولكنها لم تضع أوزارها في عهده[1] ، وكان شارلمان يعتقد أنه يستطيع ـ في يسر وسهولة ـ إنجاز هذا المشروع بنجاح ، فشرع بهذه الحرب ملتمسا من شقيقه كارلومان ـ الذي كان آنئذ على قيد الحياة ـ تقديم المساعدة[2] .

وعلى الرغم من أن شقيقه (كارلومان) امتنع عن تقديم المساعدة التي كان قد وعد بها[3] ، فان الحملة قامت على الفور ، وقادها شارلمان نفسه بعزم

---

(١) عن الصراع بين الملك بيبن القصير وادواق اقطانية انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب . [المترجم]

(٢) من المعروف أن الثورة في أقطانية نشبت ثانية عام ٧٦٩ م ، أي في العام التالي على وفاة الملك بيبن القصير . والسبب في هذه الثورة هو ان هونولد رغب في الانتقام لمصرع ابنه وايفر على يد بيبن القصير ، ولهذا غادر جزيرة ريئة التي عاش فيها راهبا في العشرين سنة الاخيرة ، ودعا اتباع بيته الى حمل السلاح وأعلن الثورة في أقطانية ضد الحكم الفرنجي ، وكان ذلك في السنة الاولى من حكم شارلمان . انظر : ديفز : ص ٥٠ ، حاطوم : ص : ١٥٠ ــ ١٥١ . [المترجم]

(٣) مع أن القانون الفرنجي يقضي بأنه ينبغي على الوارثين ان يطرحا جانبا كل ما قد يكون بينهما من مشاكل ومنازعات لمواجهة العدو الذي يهدد المملكة الفرنجية ، فان كارلومان رفض تقديم المساعدة لأخيه شارلمان لقمع الثورة التي نشبت في أقطانية بقيادة هونولد ، وذلك بحجة أن املاكه لم تمسها هذه الثورة بأي ضرر . واعتبر شارلمان هذا الرفض خيانة كبرى من جانب اخيه كارلومان للمصالح القومية والعائلية لا يمكن نسيانه . انظر : ديفز : ص ٥٤ ، أيضا : Cam. Med. Hist., II, P. 595 . [المترجم]

راسخ ، ولم يتوقف أو يتردد في القيام بالمهمة التي كان قد أخذها على عاتقه حتى تمكن ـــ معتمداً على ثباته واقدامه ـــ من تحقيق أهدافه تحقيقا كاملا •

لقد أجبر شارلمان هونولد Hunold ، الذي كان قـد حاول الاستيلاء على أقطانية بعد موت وايفار Waifar ، وجدد الحرب بعد أن كادت تنتهي ، أجبره شارلمان على التخلي عن أقطانية والفرار الى جاسكوني Gascony [1] ، على أن الملك الغازي لم يعطه فرصة للراحة وانما عبر نهر الجارون Garonne [2] ، وبنى قلعـة فرونساك Fronsac ، ومن ثـم بعث سفراء الى لوبوس Lupus دوق جاسكوني ، يطلب منه تسليم اللاجىء (هونولد) مهدداً إياه باستخدام القوة للقبض عليه ما لم يبادر الى تسليمه [3] • واختار لوبوس الطريق الاكثر

---

(١) جاسكوني (غاسكوني) اقليم يقع في الجنوب الغربي من فرنسة ، تحده جبال البرانس من الجنوب وخليج بسكاي من الغرب • واسم جاسكوني مشتق من الباسك (البشكنس) وهي القبائل الاسبانية التي اجتازت البرانس واستولت في القرن السادس الميلادي على هذا الاقليم الذي عرف باسمهم • وقد لعب هذا الاقليم دورا هاما في التاريخ ، والحق عام ١٠٣٦م بمقاطعة اقطانية • انظر : Moore, P. 298 . [المترجم]

(٢) الجارون : نهر يقع في فرنسة • واسمه اللاتيني القديم هو : جارومنـة Garumna طولـه ٥٧٩ كم ، ينبع من اواسط جبـال البرانس ويصب في المحيط الاطلسي • انظر : Moore, P. 298 . [المترجم]

(٣) بعد ان قهر شارلمان الثائر هونولد (٧٦٩ م) طارده نحو الجنوب ، واضطر هذا الاخير الى اللجوء الى ابن اخيه واسمه لوبوس ، دوق جاسكوني ، الذي كان لا يزال حتى ذلك الوقت محافظا على استقلال بلاده • ويبدو أن هونولد كان مكروها في جاسكوني لانه كان قد اساء سابقا معاملة والـد لوبوس • ولهذا فعندما اجتاز شارلمان نهر الجارون بادر لوبوس الى اعلان ولائه وطاعته لشارلمان من ناحية وتسليم عمه اللاجىء هونولد • وبذلك انتهت الحرب بين شارلمان والاقطانيين • انظر : ديفز : ص ٥٠
[المترجم]

حكمة[1] ، ذلك أنه لم يسلم هونولد فحسب وانما أعلن خضوعه هو نفسه أيضا ــ مع الاقليم الذي يحكمه ــ للملك شارلمان[2] .

★ ★ ★

---

(١) تشير بعض الدراسات الى أن هونولد واتاه من الحظ ما لم يوات غيره من قادة الثورات ، إذ استطاع أن ينجو من الحكم الذي يقضي به قانون الفرنجة على الخائن ، فتقرر الاكتفاء بارساله الى رومة كيما يجيب أمام البابا عن أسباب نقضه للأيمان الدينية . ولما أعلن هونولد ندمه وتوبته انتقل الى دير في مدينة رومة ، غير انه سرعان ما تخلى عن رداءالرهبنة ولجأ الى البلاط اللومباردي في بافية . ولكن لم يكن اللومبارديون يميلون وقتذاك الى مخاصمة شارلمان من أجل شخص طاعن في السن لا حول له ولا قوة . وترتب على ذلك انهم أمروا برجمه بالحجارة حتى مات « فنال بذلك أحسن ما يستحقه » على حد ملاحظة أحد الرواة الحاقدين عليه . حول ذلك انظر : اسحق عبيد : ص ٢٠٤ ، ديفز : ص ٤٩ ــ ٥٠ .

[المترجم]

(٢) بعد أن قضى شارلمان على الثورة في أقطانية عين ابنه لويس (التقي) ملكاً عليها . وظل لويس ملكا على هذه المنطقة حتى وفاة والده عام ٨١٤ م . وهذا يدل على أهمية أقطانية والدور الساسي والعسكري والاقتصادي الذي كانت تلعبه في ذلك الوقت . انظر : Keen, P. 31 .

[المترجم]

الفصل السادس

الحرب اللومباردية

بعد أن وضعت الحرب الاقطانية أوزارها وسويت المسائل في أقطانية[1]، قام شارلمان ـ بدافع من توسل هادريان Hadrian [2] ، اسقف مدينة رومة ، ورجائه ، بشن الحرب ضد اللومبارديين[3] . وكان قسيمه في الحكم ، وهو شقيقه كارلومان ، قد توفي أثناء ذلك[4] .

وكان والده (بيبن القصير) قد قام قبله بهذه المهمة بناء على طلب البابا ستيفن Stephen [5] ، ولكن في ظل صعوبات بالغة ، ذلك أن عدداً من القادة الفرنجة ، الذين اعتاد (بيبن القصير) استشارتهم ، قد عارضوا خطته بشدة ، وأعلنوا صراحة أنهم سوف يتخلون عن الملك ويعودون الى وطنهم[6] . وبالرغم

---

(١) بدأت الحرب بين شارلمان والاقطانيين عام ٧٦٨ م وانتهت في العام نفسه . [المترجم]

(٢) هو البابا هادريان الاول (٧٧٢ ـ ٧٩٥ م) . [المترجم]

(٣) بدأت الحرب بين شارلمان واللومبارديين عام ٧٧٣ م وانتهت عام ٧٧٤م . [المترجم]

(٤) توفي كارلومان عـام ٧٧١ م . [المترجم]

(٥) المقصود هنا البابا ستيفن الثاني (٧٥٢ ـ ٧٥٧ م) . [المترجم]

(٦) كان بيبن القصير قد جمع كبار رجالات المملكة الفرنجية عـام ٧٥٤ م ، وأعرب عن رايه في القيام بحملته ضد اللومبارديين في ايطالية لصالح البابا ستيفن . الا أن زعماء الفرنجة قاوموا اقتراحه ، وذلك لأن التحالف بين الفرنجة واللومبارديين يعتبر عندهم تقليداً أساسياً منذ أيام شارل مارتل (٧١٤ ـ ٧٤١ م) . غير أن الملك بيبن القصير لم يتراجع أمام هذا الرفض، وعقد مجلسا آخر ، في العام نفسه ، استطاع فيه أن يحمل زعماء الفرنجة على الاخذ بفكرته وشن الحرب ضد اللومبارديين . انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب ، أيضا : حاطوم : ص٩٦ ، اسحق عبيد : ص٢٠٢ـ٢٠٣ . [المترجم]

من ذلك فان (بيبن القصير)قد شن الحرب ضد الملك اللومباردي أيستولف Aistolf ، وأنهاها بصورة سريعة[١] .

وعلى الرغم مما يبدو الآن من أن شارلمان في وضع مشابه أو بالاحرى كانت لديه الدوافع نفسها التي كانت لدى والده لشن الحرب ضد اللومبارديين، فان الحرب نفسها اختلفت عن سابقتها من حيث صعوباتها ونتيجتها . فمن المؤكد أن بيبن (القصير) أجبر الملك أيستولف ـــ بعد أن حاصره عدة أيام في بافية Pavia [٢] ـــ على تقديم رهائن ، وعلى اعادة المدن والقلاع ، التي كان قد انتزعها ، الى الرومان ، وعلى أداء يمين بألا يحاول الاستيلاء عليها مــرة أخــرى[٣] .

---

(١) بدات الحرب بين الملك بيبن القصير واللومبارديين عــام ٧٥٤ م وانتهت عام ٧٥٦ م [المترجم]

(٢) بافية مدينة ايطالية ، وعاصمة لمقاطعة تحمل الاسم نفسه . تقع على نهر تيشينو Ticino . وعلى بعد ٣٢ كم الى الجنوب من مدينة ميلان (ميلانو). ومن اشهر كنائس بافية العديدة كنيسة القديس ميشيل التي تعود الى الى القرن الحادي عشر وكانت مركزاً مبكراً للتعليم ، ومن المحتمــل ان مدرسة الحقوق فيها قد اسست في القــرن التاسع الميلادي واصبحت جامعة في عام ١٣٦١ م . اتخذها اللومبارديون عند دخولهم ايطالية عاصمة لهــم . انظر : . Moore, P. 603

(٣) من المعروف أن بيبن القصير كان قد قام ـــ ما بين ٧٥٤ـ٧٥٦م ـــ بحملتين الى ايطالية ضد الملك اللومباردي ايستولف ، وذلك بدعوة من البابا ستيفن الثاني (٧٥٢ ـــ ٧٥٧ م) ، لاسترداد مدينة رافنة وغيرها من المدن التي انتزعها أيستولف من البابوية . وكانت الحملة الاولى عام ٧٥٤ م ، حيث الحق فيها بيبن القصير هزيمة بالملك اللومباردي الذي اضطر الى توقيــع معاهدة صلح تعهد فيها بتقديم فروض التبعية للملك الفرنجي وباعــادة المدن الى البابوية . ولكن بعد أن غادر بيبن القصير ايطالية اخذ أيستولف يماطل في تنفيذ المعاهدة ، بل أقدم على محاصرة مدينة رومة في شتاء عام=

غير أن شارلمان لم يتوقف ـ بعد أن أعلن الحرب على اللومبارديين ـ حتى أنهك الملك ديسيدريوس ، باستخدام أسلوب الحصار الطويل الامد ، وبالتالي أجبره على الاستسلام دون قيد أو شرط[1]، وطرد ابنه أدالجيس Adalgis

---

٧٥٥ ـ ٧٥٦ م . وعندئذ استنجد البابا ستيفن ثانية بالملك الفرنجي الذي اضطر الى ان يقوم بحملته الثانية ضد اللومبارديين عام ٧٥٦ م . وبعد أن فرض بيبن القصير الحصار على العاصمة اللومباردية ، بافية ، أدرك أيستولف انه لا مفر امامه لانقاذ مملكته سوى طلب الصلح . فوقع الطرفان معاهدة صلح للمرة الثانية ، اشتملت على بنود المعاهدة الاولى اضافة الى تعهد أيستولف بتقديم ثلث دخلـه الملكي جزيـة سنوية لبيبن القصير ، بتقديم رهائن لضمان تنفيذ المعاهدة . انظر تفاصيل ذلك عند :
Stephenson, P. 172 ; Painter, P. 75 ; Hyde, P. 38 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 216 .

[المترجم]

(١) إن السبب في حملة شارلمان ضد اللومبارديين يعود الى محاولة ديسيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤ م) الضغط على البابا هادريان الاول (٧٧٢ ـ ٧٩٥ م) لتتويج بيبن بن كارلومان ملكا على الفرنجة. ومن المعروف أن ابن كارلومان هذا كان قد التجأ ، عام ٧٧١ م ، مع والدته جربرجة الى بلاط الملـك اللومباردي بحثا عن المساعدة ضد شارلمان ويبدو أن ديسيدريوس رغب في أن يتخذ من مسألة مساعدة ابن كارلومان ورقة رابحة للانتقام من شارلمان الذي كان قد طلق ابنته من ناحية ولتحقيق برنامج أسلافـه في فرض السيادة اللومباردية على كل شبه الجزيرة الايطالية من ناحية أخرى. وبالفعل زحف ديسيدريوس الى رومة عام ٧٧٢ م لتتويج ابن كارلومان ، بالقوة ، ملكا على الفرنجة . غير أن تهديد البابا له بالحرمان الكنسي اضطره للتوقف والعودة الى بلاده . وأثناء ذلك كان البابا هادريان قد بعث الى شارلمان يطلب منه المساعدة العاجلة. ومع أن شارلمان حاول تسوية المسألة بين البابا والملك اللومباردي ، سلميا ، الا انه فشل في ذلك ، وقرر أخيراً اعلان الحرب ضد اللومبارديين، وقاد بنفسه حملته الى ايطالية عام ٧٧٣م. وبعد أن حاصر شارلمان العاصمة اللومباردية بافية تسعة أشهر استسلمت الحامية خوفا من الموت جوعا وسقطت المدينة في العام التالي (٧٧٤ م) وبذلك انتهت المملكة اللومباردية على أيدي شارلمان. انظر تفصيل ذلك عند:
Cam. Med. Hist., 11, P. 597-98 ;
Keen, P. 31 ; Painter, P. 76 ; Hyde, P. 39 ; Fichtenau, P. 21 .

[المترجم]

وهو آخر أمل للومبارديين ، لا من مملكته فحسب بل من ايطالية كلهـا[١] ، واسترد للرومان كل ما كانوا قد فقدوه • وأخضع هريوديجوس Hruodgaus دوق فريولي Friuli [٢] ، الذي كان يتآمر للثورة عليه[٣] وأخضع ايطالية كلها الى سلطته ، ونصب ابنه بيبن Pepin ملكا عليها[٤] •

وربما كان من واجبي هنا أن أصف ما عاناه شارلمان من صعوبات في عبوره جبال الالب ، وهو في طريقه الى ايطالية ، وما تحمله الفرنجة مـن الشدائد في تسلق السلاسل الجبلية غير المطروقة ، والمنحدرات الصخريـة الشاهقة ، والقمم الوعرة ، لولا أن هدفي من تأليف هذا الكتاب هو وصف أسلوب شارلمان أكثر من وصف حوادث الحروب التي خاضها • ويكفي أن نقول إن هذه الحرب قد انتهت باخضاع ايطالية ، ونفي الملك ديسيدريوس

---

(١) عندما حاصر شارلمان مدينة فيرونة اللومباردية هرب ادالجيس منها الـى بافية ، ومن ثم ابحر الى القسطنطينية على ظهر سفينة حيث أمضـى ما تبقى من حياته في البلاط البيزنطي يعاني البؤس والشقاء ، ووجد فيه الاباطرة البيزنطيون ورقة رابحة في سياستهم الايطالية • انظر :
Painter, P. 76 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 598 .
[المترجم]

(٢) فريولي : منطقة تقع في الشمال الشرقي من ايطالية ، على الحدود الايطالية ــ اليوغسلافية ، كانت تتبع دوقية لومباردية • في عام ١٩٤٧ الحقت فريولي الشرقية بيوغسلافية • انظر : Moore, P. 291 [المترجم]

(٣) يبدو أن الاحوال في ايطالية لم تستقر لشارلمان بعد أن قضى على المملكة اللومباردية ، حيث تألف حلف ضم عددا من الادواق اللومبارديين بزعامة هريوديجوس بهدف الثورة ضد الفرنجةفيايطالية واعادة المملكة اللومباردية غير أن شارلمان أسرع في شتاء ٧٧٥ ــ ٧٧٦ م في الزحف على ايطالية وحطم المؤامرة وقتل دوق فريولي في أرض المعركة • انظر : ديفز : ص ٩٣ ، حاطوم : ص ١٥٥ ، Cam. Med. Hist., 11, P. 600 [المترجم]

(٤) توج بيبن هذا ملكا على ايطالية على يد البابا هادريان الاول عام ٧٨١ انظر:
Fichtenau, P. 41 .

مدى الحياة[1] ، وطرد ابنه أدالجيس من ايطالية[2] ، واعادة فتوحات الملوك اللومبارديين الى هادريان ، زعيم الكنيسة الرومانية[3] .

★ ★ ★

---

(١) لقد اختلفت الروايات المتعلقة بمصير الملك اللومباردي وزوجته ، فرواية تشير الى أن ديسيدريوس قد هرب مع زوجتهعبر جبال الالبالى بافارية، حيث قضيا ما تبقى من حياتهما في ديرين منفصلين ، ورواية اخرى تقول ان الملك اللومباردي قد وقع أسيراً بيد شارلمان الذي قام بسمل عينيه وادخاله احد الاديرة في غالية . انظر تفصيل ذلك : عاشور : ج١ ، ص٢٠١، اسحق عبيد : ص ٢٠٥ ، ديفز : ص ٧٤ ،
Painter, P. 76 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 599 .

(٢) لقد اشار المؤرخ أينهارد ، كما هو واضح في المتن ، الى مصير الامير أدالجيس والى مصير والده ديسيدريوس ، غير أنه يلتزم الصمت حول مصير أسرة كارلومان ، التي كانت قد التجأت الى بلاط الملك اللومباردي. غير أن الدراسات الحديثة تشير الى أن شارلمان قد القى القبض على زوجة اخيه ، جربرجة ، وعلى ابن أخيه ، بيبن ، في مدينة فيرونة . والراجح أن الأم وابنها قد نزلا بأديرة غير معروفة دون أن يلحق بهما شارلمان اي أذى . انظر : ديفز : ص ٧٣ ، Painter, P. 76 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 598

(٣) تعتبر حملة شارلمان هذه على ايطالية من أهم الحملات التي قام بها في تاريخه السياسي والعسكري ، وذلك لما ترتب عليها من نتائج اهمها :
١ ـ تحطيم المملكة اللومباردية واتخاذ شارلمان لقب « ملك اللومبارديين ».
٢ ـ أفاد شارلمان فائدة كبرى بما كانت تحتويه المملكة اللومباردية من ثروات ، مادية وادبية ، ساهمت في تطوير مدنه والنهوض بمملكته .
٣ ـ جعلت هذه الحملة قدما لشارلمان في ايطالية ، وهو أمر كان يسعى حثيثا لتحقيقه .
٤ ـ انقذت هذه الحملة البابوية من الخطر اللومباردي الى الابد وبالتالي فسحت المجال للبابوية حتى اصبحت دولة سياسية مستقلة .
٥ ـ غدت أملاك شارلمان، نتيجة لهذه الحملة، متاخمة لأملاك الامبراطورية البيزنطية في جنوب ايطالية .
٦ ـ ساهمت حملة شارلمان في اتساع الهوة بين رومة وبيزنطة . انظر تفصيل ذلك عند : فشر : ج١ ، ص ٧٦ ، دوسن : ص ٢٦٦ ، أيضا :
Fichtenau, P. 20 ; Keen, P. 31 ; Hyde, P. 15 .

[المترجم]

الفصل السابع

الحــرب السكسونيــة

وفي ختام هذا الصراع (مع اللومبارديين) استؤنفت الحرب السكسونية The Saxon War [1] ، هذه الحرب التي بدت وكأنها قد أهملت لفترة من الزمن[2] . فما من حرب خاضتها الأمة الفرنجية بلغت من العنف والاستمرار،

---

(١) السكسون هم مجموعة من القبائل الجرمانية التي كانت تعيش في المنطقة الممتدة من الضفة الشرقية لنهر الراين حتى نهر الإيلبة عبر سهول وسط المانية المكسوة بالغابات . واشهر هذه القبائل ـــ حسب نزولها في هـذه المنطقة ـــ هي : الويستفاليون Westphalians والأنجاريـان Angarians والايستفاليون Eastphalians . ويعتبر السكسون أكثر الشعوب الجرمانية عنفا وتمسكا بقوميتهم ووثنيتهم . انظر :
Stephenson, P. 175 ; Painter, PP. 76 - 77 ; Keen, P. 31 . [المترجم]

(٢) قبل قيام شارلمان بحملته ضد المملكة اللومباردية عام ٧٧٣ م كان قد قاد في العام السابق (٧٧٢ م) أول حملة له ضد السكسون ، وأخضع قبائل الأنجاريان السكسونية ، واستولى على مركزهم الحصين في أوجسبورج . وبعد أن أقسم له زعماؤها يمين الولاء والطاعة وقدموا الرهائن ، شيد كنيسة فيها وأقام حامية لحراسة المدينة ، ثم انسحب عائداً الى بلاده . وتجدر الاشارة الى أن الصراع بين الفرنجة والسكسون يعود الى أيـام شارل مارتل وبيبن القصير ، ويبدو أن السبب المباشر لحملة شارلمان هذه هو أن السكسون أبوا أن يدفعوا الجزية المقررة عليهم والتي اشترطوا بهـا انسحاب والده بيبن القصير من بلادهم عام ٧٥٨ م . ومن ناحية أخرى أراد شارلمان من حملته الاولى هذه أن يلقن السكسون درسا في احترام الرسل والمبشرين وضرورة الامتناع عن الغارات التي يشنونها على الحدود الفرنجية . غير أن السكسون استغلوا انشغال شارلمان في العام التالي =

ومن كثرة النفقات واستنفاد الجهد ، مثلما بلغته الحروب مع السكسون ، لأن السكسون ، مثلهم مثل كل قبائل جرمانية Germany، كانوا شعبا مشهوراً بالقسوة ، ومنساقاً لعبادة الشياطين ، ومعادياً لدياتتنا (المسيحية) فضلا عن أن هؤلاء كانوا يعتبرون أن انتهاك كل قانون بشري عمل غير مشين، هذا بالاضافة الى أنه كانت هناك أحداث تتكرر كل يوم فتؤدي الى خرق السلام بين الطرفين[1] .

كان الخط الطويل للحدود بين الفرنجة والسكسون يمر في أراض مفتوحة ما عدا بعض الاماكن التي كانت تكسوها الغابات الواسعة والسلاسل الجبلية ، مما يجعل الحدود واضحة وضوحا لا ريب فيه.لذلك لم تكن تتوقف حوادث الاجرام واللصوصية والتهريب من كلا الجانبين . وهذا كله أثار غيظ

= (٧٧٣ م) بحملته ضد اللومبارديين ، فقاموا بالثورة واستولوا على اوجسبورغ وطردوا الحامية الفرنجية منها وخربوا القرى والحصون حتى حدود الراين وحطموا كل الكنائس التي صادفوها في طريقهم ، فاضطر شارلمان الى قتال السكسون من جديد فهاجمهم عام ٧٧٥ م واوقع الهزيمة بهم وادى زعماؤهم يمين الولاء من جديد للعاهل الفرنجي . انظر تفصيل ذلك : موس : ص ٣٥٠ ، دوسن : ص ٢٦٦ ، ديفز : ص ٦٥ ، اسحق عبيد : ص ٢٠٧ ، Cam. Med. Hist., 11, P. 610 ; Keen, 31 .

[المترجم]

(١) تشير الدراسات الحديثة الى أن أهم الاسباب التي تكمن وراء الصراع بين شارلمان والسكسون هي :
١ ـ رغبة شارلمان في توسيع حدود مملكته .
٢ ـ الانتقام من السكسون الذين لم تنقطع غاراتهم على حدود المملكة الفرنجية .
٣ ـ رغبة شارلمان في نشر المسيحية الكاثوليكية بين القبائل السكسونية التي كانت لا تزال على الوثنية . انظر : موس : ص ٣٥٠ ، دوسن : ص ٢٦٦ . [المترجم]

الفرنجة الذين قرروا في النهاية التوقف عن القيام بأعمال انتقامية والنزول الى ميدان الحرب المكشوفة مع السكسون[1] .

واندلعت الحرب ضد السكسون ، وكانت حربا طويلة شديدة الضراوة دامت ثلاثة وثلاثين عاما متصلة[2] . وعلى أية حال لقد كانت هذه الحرب أكثر ضرراً للسكسون منها للفرنجة . ومما لا شك فيه أنه كان بالامكان انهاء هذه

---

(١) بعد أن عاد شارلمان من حملته ضد السكسون عام ٧٧٥ م ثار هؤلاء ، مرة اخرى ، في العام التالي ٧٧٦ م . وكان شارلمان وقتذاك يعمل على اخضاع دوق فريولي في ايطالية . ولكن سرعان ما غادر شارلمان ايطالية وهاجم الثوار السكسون ، على حين غرة ، واضطرهم الى التسليم له واعتناق المسيحية . غير أن زعيما ويستفالياً هو فيدوكند Widukind رفض أن يستسلم لشارلمان وفر الى بلاط ملك الدانمارك. وفي العام التالي ٧٧٧م، عقد شارلمان مجلسا في مدينة بادر بورن ، وهي من اعمال ويستفالية ، حضره نبلاء الفرنجة والسكسون ، حيث أعلن الزعماء السكسون ، الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية ، ولاءهم لشارلمان والكنيسة الرومانية . انظر: اسحق عبيد : ص ٢٠٧ ، ; Cam. Med. Hist., 11, P. 610 [المترجم]

(٢) لقد دامت الحرب بين شارلمان والسكسون قرابة ثلاثة و ثلاثين عاما (٧٧٢ ـ ٨٠٤ م)ولكنها لم تكن مستمرة وانما كانت تتجدد بين فترة واخرى . ويبدو أن السبب في استمرار هذه الحرب ، كما يستنتج مما ذكره اينهارد وغيره من المؤرخين، يعود الى صعوبة بلاد السكسون ذات الغابات والاحراش الواسعة، وعدم وجود مدن أو معاقل محصنة للسكسون يمكن أن يحاصرها شارلمان ، وعدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها جيوش الفرنجة . هذا بالاضافة الى عناد السكسون وشدة تمسكهم باستقلالهم وعقائدهم وارتدادهم عن المسيحية اكثر من مرة ، ونقضهم للمعاهدات التي كانوا يوقعونها مع الفرنجة ، وثقل وطأة الضرائب التي كان يفرضها الفرنجة عليهم . انظر : Cam. Med. Hist., 11, P. 613 ; Pirenne, Hist. of Europe., P. 82

[المترجم]

الحرب بصورة أسرع لولا كفر السكسون وعنادهم[1] .

ومن الصعوبة بمكان أن نذكر كم مرة قهر السكسون وأعلنوا خضوعهم للملك (شارلمان) ، وكم مرة قطعوا الوعود على أنفسهم بتنفيذ ما يؤمرون به، فكانوا يقدمون الرهائن التي تطلب منهم دون تردد ، ويستقبلون الموظفين الذين كان يبعث بهم الملك اليهم[2] .

وكان السكسون يتعرضون ، في بعض الاحيان ، لحالات من الضعف والتخاذل لدرجة أنهم كانوا يقطعون الوعود على أنفسهم بأنهم سوف يتخلون عن عبادة الشياطين ويعتنقون المسيحية ، غير أن استعداد هؤلاء (السكسون) لانتهاك هذه العهود كان مساويا لاستعدادهم للقبول بها، بحيث يستحيل الحكم أيهما كان الاسهل عليهم القيام به ، فنادراً ما كانت تمر سنة، منذ بداية الحرب، دون أن تظهر تغيرات من جانب السكسون .

---

(١) يحاول المؤرخ اينهارد ان يصبغ على مقاومة السكسون للفرنجة صبغة دينية ، اي أن يعطي حروب شارلمان ضد السكسون صفة الحروب الصليبية . غير أن عدداً من الباحثين ينظرون الى صمود السكسون في وجه شارلمان على انه لايعود الى تمسكهم بتراثهم وعقائدهم الدينية فحسب وانما الى تمسكهم باستقلالهم ضد السيطرة الفرنجية ، بمعنى أن دفاع السكسون عن عقائدهم القومية ارتبط بمسألة الدفاع عن استقلال بلادهم . انظر : دوسن : ص ٢٦٦ . [المترجم]

(٢) ثار السكسون ضد الفرنجة ، مرة اخرى ، عام ٧٧٨ م ، اي في الوقت الذي كان فيه شارلمان يحارب في اسبانية ، وكانت ثورتهم هذه المرة ايضا تحت قيادة فيدوكند . واضطر شارلمان الى قيادة حملة اخرى ضد السكسون . ومع أن شارلمان نجح في القضاء على هذه الثورة ، الا ان فيدوكند تمكن من الفرار من قبضة العاهل الفرنجي ليثور مرة اخرى عام ٧٨٢ م ويلحق بالقوات الفرنجية هزيمة ماحقة على نهر الويزر قتل فيها مبعوثان امبراطوريان وخمسة من الكونتات فضلا عن عشرين نبيلا من اعرق الاسر الفرنجية . انظر : دوزي : ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ديفز : ص ١٠٧ — ١٠٨ ، ١١٢ ، اسحق عبيد : ص ٢٠٨ — ٢٠٩ . [المترجم]

ولكن الملك (شارلمان) لم يسمح لهدفه الأعلى وصموده أن يهتزا،بتقلب مواقف السكسون ، أو أن يتحول عن المهمة التي كان قد نهض لتنفيذها لما عرف به من الحزم في الشدة والرخاء ، فلم يسمح لسلوكهم الغادر أن يمر دون عقاب ، فاما أن يقود الحرب ضدهم بنفسه أو يبعث بكونتاته على رأس جيش لكبح جماحهم وتنفيذ القصاص العادل بهم(١) .

وأخيراً ، بعد أن قهر شارلمان كل أولئك الذين أظهروا مقاومة وأخضعهم، أخذ عشرة آلاف من السكسون الذين يعيشون على ضفاف نهر

---

(١) يلاحظ ان المؤرخ اينهارد يتجاهل ذكر الجريمة التي ارتكبها سيده شارلمان اثناء صراعه مع السكسون ، الا وهي « مذبحة فردان » التي وقعت عام ٧٨٢ م ، والتي اعدم فيها شارلمان اربعة آلاف وخمسمائة سكسوني شنقا في يوم واحد . ويرى بعض الباحثين أن السبب في هذه المذبحة هو ان السكسون كانوا قد نصبوا كمينا لجيش كان قد بعث به شارلمان لقمع الثورة التي قادها فيدوكند عام ٧٨٢ م ، وتمكن هذا الكمين من القضاء على الجيش الفرنجي قضاء مبرما . وعندما وصلت هذه الانباء الى مسامع شارلمان استشاط غضبا وقاد جيشا آخر بنفسه وضرب معسكره عند فردان ومن ثم أنذر السكسون وطالبهم بتسليم كل من تسببوا في ابادة جيشه . فقدم زعماء السكسون ، عندئذ ، اربعة آلاف وخمسمائة من الرجال فأعدمهم شارلمان . ويرى فريق آخر من الباحثين أن السبب في اعدام هؤلاء هو انهم رفضوا اعتناق المسيحية ، خاصة أن اينهارد نفسه يركز تركيزا ملحوظا على مسألة تمسك السكسون بوثنيتهم وحرصهم على عقائدهم . غير أن الدراسات الحديثة ترى أن مقاومة السكسون وثوراتهم ضد الفرنجة هو دفاع عن استقلالهم الوطني وتراثهم القومي ضد السيطرة الفرنجية . انظر : Cam. Med. Hist., II, P. 612 ; Fichtenau, P. 22 .

ايضا انظر : دوسن : ص ٢٦٦ ، موس : ص ٣٥١ .

[المترجم]

الإيلبة[1] ، وأسكنهم مع زوجاتهم وأولادهم ، في أماكن متفرقـة هنا وهناك فيأراضي غاليةوألمانية [2] .

انتهت هذه الحرب التي دامت سنين عديدة ، بقبول السكسون للشروط التي عرضها الملك (شارلمان) عليهم ، والتي تشتمل على تخليهم عن أعرافهم الدينية القومية وعبادة الشياطين ، وبقبول طقوس العقيدة المسيحية والدين المسيحي ومن ثم الاتحاد مع الفرنجة لتكوين شعب واحد[3] .

* * *

---

(١) نهر الإيلبة (الألبة) هو ثاني نهر في ألمانية ، حيث يبلغ طوله ١١٦٧ كم ، وينبع من سلسلة الجبال البوهيمية ، ويصب في بحر الشمال قرب مدينة كوكس هافن . وأهم المدن التي تقع على هذا النهر هي مدينة دريسدن وهامبورغ . انظر : Moore, P. 253 . [المترجم]

(٢) كانت آخر ثورات السكسون ضد شارلمان قد اندلعت عام ٨٠٤ م ، وذلك عندما تمردت جماعة من النورد البيجيان Nordalbigians ، وهي من القبائل القاطنة الى الشمال من هامبورغ . وقد قمع شارلمان هذه الثورة وأرغم، كما يذكر المؤرخ في المتن ، عشرة آلاف من هؤلاء السكسون ، على النزوح قهراً الى شطر آخر من مملكة الفرنجة بعد ان صادر أملاكهم ووزعها على أفصاله وقادته ورجال الدين ورؤساء أديرة . انظر : موس : ص ٣٥٣ . Keen, P. 31 ; [المترجم]

(٣) تشير بعض المراجع الى أن الزعيم السكسوني فيدوكند قد استسلم، اخيراً لشارلمان ، ومن ثم تنصر ، أو أرغم على التنصر ، وتم تعميده عام ٧٨٥ م. وقضى فيدوكند بقية حياته في ويستفالية . ويرى أحد الباحثين أن تنصر هذا الزعيم الوطني يعتبر مولد ألمانية المسيحية المتحدة . ولقد رفعت الأساطير والآداب السكسونية من عظمة فيدوكند وكرم بوصفه قديسا سكسونيا . انظر : Cam. Med. Hist., 11, P. 612 ; Fichtenau, P. 22 .

[المترجم]

الفصل الثامن

الحـــرب السكسونيـــة (تتمة)

على الرغم من أن الحرب مع السكسون كانت طويلة الامــد ، الا أن شارلمان نفسه لم يشارك في هذه الحرب سوى في معركتين ضاريتين فقط ، إحداهما عند هضبة أوسننغ Mount Osning [1] في مكان يدعى ديتمولد Detmold [2] ، وثانيتهما على ضفة نهر هازة Hase [3] ، وكلتاهما وقعتا خلال مدة لا تزيد على الشهر الا قليلا • وفي هاتين المعركتين تــم تمزيق العــدو (السكسوني) وهزيمته ، حتى إن (السكسون) لم يغامروا بعد ذلك اطلاقا في الاعتداء على الملك (شارلمان) أو التصدى لهجماته ما لم يكونوا قــد احتموا في موقع حصين[4] •

---

(١) هضبة أوسننــغ تشكل الجزء الاوسط مــن غابة توتوبورجر Teutoburger الواقعة في الشمال الغربي من المانية الغربية الحالية ، وأعلى ارتفاع لهــا يصل حتى ٣٨٦ متراً • انظر : Duden . [المترجم]

(٢) ديتمولد مدينة تقع في الجنوب الشرقي من غابة توتوبورجر • كان عدد سكانها (في عام ١٩٧٠) حوالي ٦٤٫٥٠٠ نسمة • انظر : Moore, P. 224 . ; Duden . [المترجم]

(٣) ينبع نهر هازة من غابة توتوبورجر ، وهو نهر صغير يبلغ طوله ١٣٠ كم ، ويصب في نهر آخر يدعى نهر الإيمز Ems • انظر : Duden . [المترجم]

(٤) يبدو ان هاتين المعركتين وقعتا عام ٧٨٣ م ، ذلك ان قتالا شديداً كان قد نشب عند ديتمولد ، سحق فيه شارلمان جيشا ويستفاليا . اما المعركة الثانية فقد وقعت قرب أوسنابروك هزم فيها شارلمان جيشا للانجاريين . وظل هذا الموضع ، زمنا طويلا ، يحمل الاسم المشؤوم « تل القتل » . انظر : ديفز : ص ١١٣ . [المترجم]

لقد فني في هذه الحرب ـــ التي لم تنته الا بعد انقضاء اثنتين وثلاثين سنة[1] ـــ عدد كبير من نبلاء الفرنجة والسكسون على حد سواء ، وهم رجال يشغلون مقامات رفيعة . وكانت الحروب التي شنت ضد الفرنجة ، خلال تلك الفترة ، كثيرة وبالغة العنف ، وكان الملك يقودها بمهارة فائقة ، حتى إن المرء ليتساءل حقا أيهما أكثر موضعا للاعجاب ، جلده أم حظه الطيب .

كانت الحرب السكسونية قد بدأت قبل سنتين من الحرب الايطالية[2] ، وعلى الرغم من أن تلك الحرب قد استمرت دون انقطاع ، فإن الأعمـــال في المناطق الاخرى لم تهمل ، ولم يكن هناك أي تردد في خوض معارك أخرى قاسية قسوة تلك الحرب . فالملك الذي فاق جميع أمراء عصره ، في الحكمة وعظمة النفس ، لم يسمح للصعاب أن تثنيه عن عزمه ، كما لم يسمح لخطر أن يرهبه فينكص عن عمل أي شيء كان عليه أن يعمله أو ينفذه ، ذلك لأنه

---

(١) يلاحظ هنا التباين في روايات اينهارد ، ففي الفصل السابق اشار الى ان الحرب بين شارلمان والسكسون دامت ثلاثة وثلاثين عاما ، في حين يشير في هذا الفصل الى انها دامت اثنتين وثلاثين عاما . والواقع أن هذه الحرب بدات عام ٧٧٢ م وانتهت عام ٨٠٤ ، وبالتالي فان هذه المـدة تزيد علـى ثلاثة وثلاثين عاما . ولكن هذه الحرب لم تكن مستمرة وانما تخللتها فترات هدنة ، كما ان شارلمان نفسه اضطر الى وقف هذه الحرب اكثر من مرة نتيجة اندلاع صراعات اخرى في اطراف اخرى من حدود بلاده او قيامـه بحملات عسكرية خارج حدود مملكته .

(٢) يبدو أن المؤرخ اينهارد غير دقيق في هذه المسالة ، ذلك ان الحرب بـين شارلمان والسكسون كانت قد بدات عام ٧٧٢ م ، في حين ان الحملـة الايطالية التي قادها شارلمان ضد اللومبارديين كانت قد بدات عام ٧٧٣ م وانتهت في العام التالي ٧٧٤ م .

[المترجم]

كان قد درّب نفسه على تحمل كل ما يواجهه ، دون ضعف واستسلام في حالة الشدائد أو ثقة بابتسامات الحظ المضللة في حالة النجاح[1] .

★ ★ ★

---

(١) لقد أسفر الصراع الطويل بين شارلمان والسكسون عن نتائج بالغة الاهمية بالنسبة الى الطرفين . ولعل أهم هذه النتائج هي : اولا : كسر شوكة الوثنية في سكسونية وتنصر السكسون الذين أصبحوا ، بعد نصف قرن تقريبا ، أكثر الشعوب الجرمانية تمسكا بالمسيحية وغيرة عليها . ثانيا : دخول السكسون في نطاق الحضارة الاوربية ومدنيتها . ثالثا : استيطان اعداد كبيرة من الفرنجة في بلاد السكسون لاستغلالها والافادة من ثرواتها. رابعا : زحف حدود الفرنجة من نهر الراين الى نهر الإيلبة وبالتالي اضحت حدود مملكة شارلمان متاخمة للدانماركيين والسلاف الشماليين الذين ينزلون وراء نهري الإيلبة والسال ، وهذا ادى بدوره الى صراعات جديدة كان على شارلمان ان يخوضها . انظر : Cam. Med. Hist., 11, P. 613

[المترجم]

الفصل التاسع

الحملـة الاسبانيـة

وفي خضم هذا الصراع العنيف الذي دار بين شارلمان والسكسون، بشكل يكاد يكون متصلا ، قام شارلمان بتغطية الحدود بوضع حاميات في المواقع الملائمة ، وزحف فوق جبال البرانس (البيرينه) Pyrenees [1] الى اسبانية على رأس كل القوات التي استطاع تجنيدها[2] .

(١) جبال البرانس او البيرينة هي سلسلة من الجبال تمتد على مسافة ٤٤٠كم من خليج بسكاي في الغرب الى البحر المتوسط في الشرق . ويبلغ ارتفاعها في اعلى قممها ٣٤٠٤ كم وسفوحها الشمالية تقع في فرنسة بينما تقع سفوحها الجنوبية في اسبانية ، اي أن جبال البرانس تفصل شبه الجزيرة الايبيرية عن فرنسة . وقد عبرت المراجع العربية عن جبال البرانس باسم جبل « البرتات » او جبل « البُرت » . ويقول رينو ان هذه التسمية مأخوذة من التسمية اللاتينية Portus ومن الاسبانية Puerto ومعناها: المنفذ، لأن الواقع هو انه يجب المرور عن طريق هذه الجبال من اسبانية للاتصال بالقارة الاوربية . انظر : رينو : ص ١٠١ ، Moore, P. 638 ;

[المترجم]

(٢) ان حملة شارلمان ضد العرب في الاندلس قد حيّرت المؤرخين ، خاصة ان شارلمان لم يكن بحاجة ، وقتذاك ، الى اعداء جدد ، كما ان مملكته لم تكن تتعرض، في ذلك الوقت، لأي خطر من جانب العرب المسلمين في الاندلس. وقد كشفت الدراسات الحديثة ان اهم الاسباب التي تكمن وراء حملة شارلمان ضد العرب المسلمين في الاندلس ، عام ٧٧٨ م /١٦١ هـ/ هي : أولا : رغبة شارلمان في التوسع فيما وراء البرانس وتحقيق الحلم الذي يداعب خياله وهو تكوين امبراطورية تعيد ذكرى الامبراطورية الرومانية القديمة عظمة واتساعا . ثانيا : تأمين الحدود الجنوبية لمملكته من التهديد العربي الاسلامي بتبني سياسة الهجوم خير وسيلة للدفاع. والواقع اننا =

لقد استسلمت له كل المدن والقلاع التي هاجمها ، ولم يتكبد شارلمان ، حتى حين عودته ، أية خسائر تذكر[1] ، ولكن أثناء رجوعه عبر جبال البرانس

= لا نستطيع أن نتجاهل العوامل التي شجعت شارلمان على القيام بحملته هذه ، وفي مقدمتها تحريض نفر من الزعماء العرب المسلمين في الاندلس ، لأسباب قبلية وسياسية ، لشارلمان على غزو الاندلس ، وخاصة أولئك الساخطين على عبد الرحمن الداخل ، وعلى رأسهم سليمان بن يقظان والي برشلونة ، الذي اتجه الى شارلمان والتقى به في بادربورن ، في سكسونية ، عام ٧٧٨ م/١٦١ هـ ، واقترح عليه غزو الاندلس وتعهد له بتقديم الدعم والمساعدة . كما لعب ملوك اشتورياس دوراً كبيراً في تحريض شارلمان على غزو الاندلس واثارة الشعور العدائي ضد العرب . ويبدو أن البابوية ، فضلا عن اساقفة طليطلة ، قد شجعت شارلمان ، فقد بارك البابا هادريان الحملة واعتبرها « حملة مقدسة ». وفضلا عن ذلك فان العلاقات العدائية القائمة بين العباسيين في بغداد والامويين في الاندلس كانت من العوامل المشجعة لشارلمان على القيام بحملته هذه ضد العرب المسلمين في الاندلس، انظر تفاصيل ذلك عند : اخبار مجموعة : ص ١١٢ ــ ١١٣ ، دوزي : ص : ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ، بروفنسال : ص ٤٢ ، موس : ص ٣٥٥ .

[المترجم]

١) خرج شارلمان على راس جيوشه في ربيع عام ٧٧٨ م/١٦١ هـ متجها الى الاندلس ، وبعد أن اجتاز البرانس ، عبر ممر رونسفاله (رنشفاله) ، اخترق بلاد البشكنس ، وهي قبائل مسيحية ، وحاصر مدينتهم بامبلونة (بنبلونه) واستولى عليها ووضع حامية فرنجية فيها . ثم اتجه شارلمان نحو مدينة سرقسطة،وهي الهدف الرئيسي للحملة ، معتقداً بأنها ستفتح له أبوابها .غير ان سرقسطة أغلقت أبوابها دون شارلمان،وبعد أن يئس من امكانية احتلال المدينة رفع الحصار عنها واتجه شمالا عائداً الى بلاده . ولما وصل في طريق عودته ، الى مدينة بامبلونة سحب حاميته منها وهدم أسوارها لعجزه عن الاحتفاظ بها فيما وراء جبال البرانس . وترى الدراسات الحديثة أن أهم الاسباب التي تكمن وراء فشل حملة شارلمان هذه هي : ١ ــ دفاع العرب في الاندلس ، وبخاصة أهل سرقسطة ، عن بلادهم دفاعا مجيدا ضد الغزو الفرنجي . ٢ ــ فشل قوات شارلمان في تحقيق انتصارات =

آلـه ، حقا ، غدر الجسكونيين Gascons [1] • ان ذلك الاقاليم كان مهيأ تماما للكمائن بسبب الغابات الكثيفة التي تغطيه ، وبما أن الجيش (الفرنجي) كان يتقدم في صف طويل لضيق المسالك ، قام الجسكونيون ، الذين كانوا قد نصبوا كمينا على قمة جبل شاهق للغاية ، بمهاجمة مؤخرة قافلة الامتعة وحرسها الذي كان مسؤولا عنها ، ورموا بهم جميعا الى قعر الوادي • وفي الصراع الذي أعقب ذلك أباد الجسكونيون مؤخرة جيش شارلمان عن بكرة أبيها ، ونهبوا الامتعة ومن ثم تفرقوا بسرعة كبيرة في كل الاتجاهات تحت جنح ظلام الليل [2] •

= ملموسة ، وبخاصة فشلها امام سرقسطه ، وبالتالي ادراك شارلمان انه يقف وحيداً في قلب شعب معاد وعدم جدوى الحرب الدائرة • ٣ ــ فشل ذلك النفر من الزعماء العرب في الاندلس في تقديم المساعدة التي وعدوا بها العاهل الفرنجي • ٤ ــ تجدد ثورة السكسون ضد شارلمان تحت قيادة زعيمهم الوطني فيدوكند وشعور شارلمان ان كل انجازاته في سكسونية تتعرض لخطر حقيقي • ان هذه الاسباب مجتمعة اضطرت شارلمان الى العودة الى بلاده ، وعلى عكس ما ذكره اينهارد ، فقد فشل شارلمان في حملته هذه فشلا ذريعا • انظر : دوزي : ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ، طرخان : ص ١٣١ ، عنان : ص ١٧٥ ، حتي : صانعوا التاريخ العربي : ص ٩٥ •

[المترجم]

(١) عن الجسكونيين انظر : الفصل الخامس من هذا الكتاب •

[المترجم]

(٢) حلت هذه الكارثة بالفرنجة في ممر رونسفاله (رنشفاله) ، وهو يقع في الطرف الغربي من جبال البرانس ، شمال شرقي بامبلونة ، وعلى بعد عشرين كم منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق جبال البرانس من الشمال الى الجنوب • وهذه الممرات هي نفسها التي كان يستعملها العرب للعبور الى غالية • أما ملخص ما حل بجيش شارلمان فهو انه أثناء عودة شارلمان الى بلاده ، عبر ذلك الممر في =

لقد استفاد الجسكونيون من خفة دروعهم ، وطبيعة الارض في ميدان المعركة ، في حين أن الفرنجة قاتلوا في ظروف شديدة الصعوبة ، فدروعهم كانت تثقلهم ، وعدم استواء أرض المعركة كان يقيد حركتهم .

لقد كان اجيهارد Eggihard معتمد الملك الخاص ، وانسليم Anselm كونت بالاتين Count Palatine ، ورولاند Roland حاكم ثغر بريتاني March of Brittany [1] ، مع عدد كبير آخر من الفرنجة ، من ضحايا هذه

= ١٥ آب من عام ٧٧٨ م ، قامت قبائل الباسك (البشكنس) بمهاجمة مؤخرة جيشه وامطرتها وابلا من السهام وكتل الحجارة الضخمة حتى قضوا على هذه المؤخرة قضاء مبرما . وتشير الدراسات الحديثة الى أن السبب في عملية قبائل الباسك هذه ليس كما ذهب اينهارد على انه غدر وانما هو انتقام هذه القبائل لما حل بمدينتهم بامبلونة على يد شارلمان ، فقد احتل الاخير تلك المدينة في طريقه الى سرقسطة ، ثم قام بتدميرها تدميراً كاملا وهو في طريق عودته الى بلاده . وتشير بعض الروايات الى تعاون عناصر عربية مع الباسك في الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي . وعلى اية حال فان هذه الحادثة كانت كارثة حقيقية بالنسبة الى شارلمان وجيشه، وكانت ذروة كل الخسائر التي حلت بحملته المذكورة هذه ، فضلا عن انها كانت خسارة ادبية كبيرة لمكانة شارلمان في الغرب الاوربي . ولما كانت المؤخرة تحتوي على المؤن والذخائر فاننا ندرك حجم الخسارة المادية التي اصابت الجيش الفرنجي . هذا بالاضافة الى مقتل عدد من اعظم قادة شارلمان وقد خصهم اينهارد بذكر اسمائهم لمكانتهم الكبيرة في الجيش الفرنجي . انظر تفاصيل ذلك عند :
Pirenne, Hist., of Europe, P. 81 ; Stephenson, PP. 273 - 78; Read, P. 49; Painter, P. 79 ;
ايضا : موس : ص ٣٥٦ ، عنان : ص ١٧٥ — ١٧٧ .
[المترجم]

(١) ان منطقة بريتاني تقع في الشمال الغربي من فرنسة . وقد سكنها عنصر اصيل هم الكلت . وقد هاجر اليها اقرباؤهم من انجلترة عندما هاجم الانجلو — ساكسون الجزر البريطانية في القرن السادس الميلادي، وعرفت =

المعركـــة(١) .

لم يكن الثأر لهذا الحادث المشؤوم ممكنا هذه المرة ، لأن العدو انتشر

= المنطقـــة التي استقروا فيهـــا باسم « بريتاني » وعرفوا هم ايضاً باســـم « البريتون » . ولم يتمكن الفرنجة الميروفنجيون من اخضاع البريتون على الرغم من محاولاتهم العديدة . ومع أن البريتون اعتبروا اتباعا للميروفنجيين الا انهم خضعوا لحكم زعماء منهم . وكان من حكامها رولاند الذي ذكره أينهارد وقتل في ممر رونسفاله عام ٧٧٨ م . وقد اضطربت احوال بريتاني بعد مقتل رولاند ، واضطر شارلمان الى ارسال حملات متوالية لتهدئتها .
انظر : Pirenne, Hist. of Europe, P. 81 ; Moore, P. 127 [المترجم]

(١) يبدو انها الاشارة الاولى في التاريخ الى شخصية رولاند ، كما أن هذه الكارثة التي أصابت جيش شارلمان في ممر رونسفاله كانت الاساس التاريخي لأغنية رولاند أو انشودة رولاند التي انتشرت انتشارا واسعا في الغرب الاوربي في القرن الحادي عشر الميلادي . وعلى الرغم من ان مسائل كثيرة مرتبطة بهذه الانشودة ، لم تحسم بعد ، فان الانشودة تعتبر من اشهر الاناشيد في الادب الشعبي في المجتمع الغربي الوسيط ومن بواكير الكنوز الادبية الفرنسية وملحمة من ملاحم العصور الوسطى . وهذه الانشودة تجعل من رولاند رمزا للشجاعة والوفاء والاخلاص لسيده شارلمان ، كما صورت شارلمان نفسه في صورة الصليبي الاول . والواقع أن هذه الانشودة مليئة بالتناقضات وبعيدة عن الحقيقة التاريخية ولعب الخيال فيها دورا واسعا وضخم الحادث التاريخي البسيط ليصبح ملحمة وطنية . وقـــد استغلت انشودة رولاند استغلالا واسعا في عصر الحروب الصليبية لاثارة العداء ضد العرب المسلمين وتحريض شعوب أوربة للانضمام الى الحركة الصليبية . انظـــر تفصيل ذلك : أعمـــال مجموعة : ص ١١٣ ، موس : ص ٣٥٦ ، دوزي : ص ٢٣٠ ــ ٢٣١ .

[المترجم]

انتشاراً واسعاً بعد أن نفّذ خطته ، فلم يعثر لهم على أثر بسيط يدل على مناطق تفرقهم[1] .

* * *

(١) لعل أهم النتائج التي ترتبت على حملة شارلمان ضد العرب المسلمين في الاندلس هي :

١ ـ بددت هذه الحملة « المنكودة » حلم شارلمان في ازالة السيادة العربية عن الاندلس وتكوين امبراطورية على النسق الروماني وبالتالي لم يعد شارلمان يفكر في غزو الاندلس مرة اخرى ، ولهذا جعل المنطقة المجاورة لجبال البرانس « امارة ثغرية » تتألف من أقطانية وسبتمانية ، وأطلق عليها اسم « الثغر الاسباني » ، وجعلها تحت ادارة واحدة مهمتها حماية حدوده الجنوبية ومراقبة تحركات القوات العربية الاسلامية ، وأوكل شارلمان حكم هذه المنطقة ، لأهميتها البالغة ، الى ابنه لويس التقي .

٢ ـ لقد أدى فشل هذه الحملة الى تزايد نفوذ عبد الرحمن الداخل الاموي، الذي نجح في التخلص من كل الذين اتصلوا بشارلمان ووعدوه بتقديم العون والمساعدة ، وبالتالي فقد تمكن عبد الرحمن من فرض سلطانه على المدن التي كان زعماؤها قد خرجوا عليه مثل سرقسطة .

٣ ـ لقد ادرك كل من شارلمان وعبد الرحمن الداخل، بعد الحملة، ضرورة الصلح بينهما لكي يتفرغ كل منهما الى حل مشاكله السياسية في بلاده ، ولهذا تم عقد معاهدة بين الطرفين اشتملت على تعهد كل منهما بعدم الاعتداء على الطرف الآخر . ويقول المقري : « خاطب عبد الرحمن قارله ، ملك الفرنج ، وكان من طغاة الافرنج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فمال معه الى المدارة ، ودعاه الى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة » . انظر تفاصيل ذلك عند : المقري : نفخ الطيب ، ج١ ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ، موس : ص ٣٥٦،طرخان : ص ١٣٤ ـ ١٣٧ ، عاشور : أوربا : العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٢٠٣ ، ماجد : ص ٧١ ، احمد مختار العبادي : « الاسلام في ارض الاندلس » ، المختار من عالم الفكر (الكويت ١٩٨٤)ص ٩٣ ـ ١٤٤، أيضا انظر المراجع التاليـة : Read, P. 52; Cam. Med. Hist., 11, PP. 605 - 606 ; Painter, P. 79 ; Fichtenau, P. 23 .

[المترجم]

الفصل العاشر

اخضاع البريتون والبنفنتيين

أخضع شارلمان البريتون Bretons [1] الذين كانوا يعيشون على شاطىء البحر ، في أقصى الجزء الغربي من غالية . وكـان شارلمان قد أرسل جيشا لاخضاعهم عندما رفضوا طاعته ، وأجبرهم على تقديم رهائن ، والتعهد بأن يعملوا وفقا لأوامره[2] .

وبعد ذلك دخل شارلمان ايطالية بنفسه على رأس جيشه ، وعبر مدينة

---

(١) عن البريتون : انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٢) ان الصراع بين شارلمان والبريتون هو في حقيقته استمرار لما دار بين والده ، ببين القصير ، وبين البريتون من حروب . ومع أن بيبن القصير كان قد استولى على حصنهم المشهور ، ڤان ، ولقنهم ، عام ٧٥٢ م ، درسا في أن يحترموا حدود الفرنجة ، الا انه لم يستطع اخضاعهم . وفي عهد شارلمان اعتبر البريتون أنفسهم اتباعا للفرنجة ، ولكن بعد مقتل رولاند اضطربت أحوال بريتاني ، واضطر شارلمان الى أن يبعث عدة حملات عسكرية لاخضاع البريتون . وكانت أولى هذه الحملات عام ٧٨٦ م . ويبدو أن شارلمان نجح ، أخيرا ، في أن ينتزع يمين الولاء والطاعة من البريتون ، بحيث لم تجرؤ أية قبيلة من قبائل بريتاني من أن ترفع اصبعها في وجه الامبراطور . ولكن رغم ذلك كله لم يستطع شارلمان أن يلحق بريتاني بمملكته بصورة دائمة . انظر : أيضا . Keen, P. 31
[المترجم]

رومة الــى كابــوة Capua (١) ، وهي مدينــة تقــع في منطقــة كامبانيــة Campania (٢) حيث أقام معسكره هناك ، وتوعّد البنفنتيين Beneventans بقتالهم إن لم يعلنوا خضوعهم له(٣) .

ولقد نجا دوق البنفنتيين ، آراجيس Aragis من الخطر بارساله ولديــه الاثنين : رومولد Rumold وجريمولد Grimold ومعهما مبلغ كبير من المال لمقابلة الملك شارلمان ، والتوسل اليه لكي يقبلهما رهينتين ، ولكي يقطعا لــه عهداً ، بالنيابة عن الدوق وشعبه ، بالاذعان لكل أوامر الملك شارلمان على أن يعفى الدوق نفسه من المثول شخصيا أمام الملك .

---

(١) كابوة مدينة ايطالية ، تقع في اقليم كامبانية، الى الشمال من مدينة نابولي. اشتهرت بكنيستها الضخمة . وكابوة الجديدة تقع على بعد ٥ كم الــى الجنوب الغربي من كابوة القديمة.وكان سكان كابوة قد هاجروا من مدينتهم واسسوا كابوة الحالية بعد أن تعرضوا لهجمات العرب المسلمين عام ٨٤٠م . انظر : Moore, P. 153 [المترجم]

(٢) تقع منطقة كامبانية في جنوب شبه الجزيرة الايطالية . تطل من الغرب على البحر التيراني . واهــم مــدن هذه المنطقة نابولي وسالرنو وبنفنتوم Beneventum . وكامبانية القديمة أصغر بكثير من كامبانية الحالية . Moore, P. 146 [المترجم]

(٣) ويبدو أن هناك أسبابا عديدة دفعت شارلمان للقيام بحملتــه ضــد دوق بنفنتوم ، عام ٧٨٦ ـــ ٧٨٧ م . ومن هــذه الاسباب أن الاخير حــاول الاستقلال بدوقيته ، وقام أساقفة دوقيته بتتويجه ومسحه بالزيت . وهناك رواية تشير الى أن آراجيس كان على اتصال بالبلاط البيزنطي في القسطنطينية لتوقيع معاهدة دفاعية معها وأن يحصل آراجيس على منصب نائب الامبراطور البيزنطي في ايطالية . وترتبط الرواية الاخيرة هذه بمــا تذكره بعض المراجع من أن الدوق آراجيس ، الذي كان زوج ابنة الملك اللومباردي ديسيدريوس ، وعد بتأييد صهره ، ادالجيس ـ الذي كــان في ذلك الوقت لاجئا في القسطنطينية ـــ ومساعدته للعودة الى ايطاليــة واسترجاع مملكة أبيه التي دمرها شارلمان عام ٧٧٣ ـــ ٧٧٤ م . انظر : ديفز : ص ١٢٢ ، حاطوم : ص ١٥٦ ، ايضا : Cam. Med. Hist., 11, P. 601 - 602

لقد راعى الملك (شارلمان) مصلحة الشعب ولم يأخذ على الدوق موقفه العنيد ، فقبل الرهائن المقدمة له وأعفي الدوق من شرط المثول أمامه ، وذلك نظراً لهديته القيمة التي أرسلها له . وقد احتفظ شارلمان بالابن الاصغر ، فقط، رهينة وبعث بالابن الاكبر الى والده[1] .

ومن ثم عاد شارلمان الى رومة ، تاركا مندوبين مع آراجيس ليأخذوا منه يمين الولاء ، ويحملوا البنفنتيين عليه[2] . وعاد شارلمان الى غالية بعد قضاء عدة أيام في مدينة رومة أدى فيها صلواته في الاماكن المقدسة .

★ ★ ★

---

(١) لقد اتفق شارلمان ودوق بنفنتوم ، آراجيس ، على أن يدفع الاخير جزية سنوية لشارلمان قدرها / ٧٠٠٠ / صولدي وأن يهدم الدوق أسوار مواقعه الحصينة وأن ينبذ البنفنتيون زيهم القومي ... الخ .
انظر : ديفز : ص ١٢٢ ، أيضا Cam. Med. Hist., 11. P. 601

(٢) في عام ٧٨٧ م مات دوق بنفنتوم آراجيس . واستجاب شارلمان لرغبات البنفنتيين وأعاد جريمولد الثالث (ت ٨٠٧ م) ، ابن آراجيس ، الذي كان رهينة بيده ، بعد أن حلف يمين الولاء لشارلمان ووعد بالالتزام بكل التعهدات التي قطعها والده للملك الفرنجي . وأضاف جريمولد هذا تعهدات جديدة للفرنجة منها سك النقود باسم شارلمان وأن يؤرخ وثائقه بسنوات حكم شارلمان . غير أن جريمولد لم يكن صادقا فيما أخذه على نفسه تجاه الملك الفرنجي ، ذلك أنه سرعان ما انتهز أول فرصة ونقض التزاماته، فاشتعلت الحرب بين قوات شارلمان وجريمولد عام ٨٩٩ م ، حيث أرسل شارلمان بولديه : بيبن ولويس . وعلى الرغم من اجتماع قوات الاخوين الا أنها لم تحرز نصراً حاسماً على قوات بنفنتوم . وبعد موت بيبن (ملك ايطالية) عام ٨١٠ م ، تخلى والده شارلمان عن مشروع استخدام العنف مع بنفنتوم، وعقد صلحا مع جريمولد الرابع ، عام ٨١٢ م ، احتفظ الاخير بموجبه بأراضي الدوقية بحدودها القديمة ، ووعد مقابل ذلك بأن يدفع للفرنجة ما تأخر عليه من أقساط الجزية وأن يواصل دفعها سنويا . انظر : ديفز : ص ١٣٤ ، ٢٥١ ــ ٢٥٢ . [المترجم]

الفصل الحادي عشر

تاسيلو والحملة البافارية

في هذا الوقت اندلعت الحرب البافارية Bavarian War فجأة[1] ، غير أنها سرعان ما انتهت[2] ، وكان السبب في هذه الحرب هو غطرسة الدوق تاسيلو Tassilo وحماقته . فقد كانت زوجته حانقة لنفي والدها الملك اللومباردي ديسيدريوس ، وكانت تواقة لاستغلال سلطان زوجها للانتقام لأبيها . ولـذا

---

(١) البافاريون من الشعوب الجرمانية . وكانت دوقية بافارية أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة في وادي الدانوب ، ما بين نهـر إن Inn ونهر ليخ Lech . وكان لها تنظيمها الكنسي المستقل وقوانينها الخاصة . وقد خضعت بافارية لحكم الفرنجة منذ عهد بيبن القصير ، واعترف دوقها تاسيلو (٧٤٨ ـ ٧٨٨ م) ببيبن القصير سيداً وأعاد القديس بونيفاس تنظيم الكنيسة البافارية . ومع أن تاسيلو قد قام بواجباته العسكرية تجاه بيبن في الحملات التي وجهها الاخير ضد أقطانية عام ٧٥٦ م ، ولكن رغم ذلك فقد كانت سلطة الفرنجة في بافارية اسمية . ولقد حاول تاسيلو أكثر من مرة أن ينفض عن كاهله هذه التبعية الاسمية لملك الفرنجة ، ولكـن محاولاته باءت بالفشل . انظر :

Cam. Med. Hist., 11, P. 606 ; Painter, P. 78 .

أيضا : اسحق عبيد : ص ٢١١ ، حاطوم : ص ١٦١ .

[المترجم]

(٢) بدأ فتيل النزاع بين شارلمان وتاسيلو عام ٧٨٧ م وانتهى في العام التالي ٧٨٨ م [المترجم]

حرضته على توقيع معاهدة مع الهون Huns [(١)]، وهم جيران البافاريين من ناحية الشرق ، كما حرضته على عدم تنفيذ أوامر الملك شارلمان ، بل على تحديه بالنزول الى القتال[(٢)] .

إن الروح المعنوية العالية لشارلمان ما كانت لتسمح بقبول عصيان تاسيلو الذي رآه قد تجاوز كل الحدود. ولهذا فقد استدعى ــ على الفور ــ قواته من كل الجبهات للقيام بحملة ضد بافارية . وسار شارلمان شخصيا على رأس جيش عرمرم فوق مياه نهر ليخ Lech [(٣)] الذي يشكل الحد الفاصل بين البافاريين والالمان .

---

(١) الهون هم من الشعوب المغولية التي انطلقت من مناطق السهوب في اواسط آسية متجهة نحو الغرب في مستهل القرن الرابع واجتازت نهر الفولغة عام ٣٧١ ــ ٣٧٢ . وفي عام ٣٧٥ م حطم الهون مملكة القوط الشرقيين في اوكرانية ثم استقروا في داخل بلاد المجر (هنغارية) واخضعوا لحكمهم الكثير من القبائل الجرمانية الضاربة الى الشمال من الدانوب . وعندما اعتلى آتيلا عرش الهون عام ٤٤٤ م هدد هؤلاء الامبراطورية الرومانية . وفي عام ٤٥٠ م زحف آتيلا على القسم الغربي من الامبراطورية وهاجم غالية الا انه هزم في معركة الحقول القطالونية عام ٤٥١ م . وفي العام التالي هاجم آتيلا ايطالية ولكنه لم يدخل مدينة رومة . ثم عاد آتيلا الى هنغارية (٤٥٢ م) وتوفي في العام التالي (٤٥٣ م) وانقسمت مملكة الهون من بعده وتقطعت أوصالها . انظر تفاصيل ذلك : Cam. Med. Hist., 11 PP. 414 - 18 .

[المترجم]

(٢) إن زوجة الدوق تاسيلو هي ابنة الملك اللومباردي ديسيدريوس واسمها ليوتبرجة Liutberga . ويبدو ، كما يشير اينهارد في المتن ، انها عملت على اعادة اخيها ، أدالجيس ، الى العرش اللومباردي والانتقام لأبيها من شارلمان عن طريق تحريض زوجها تاسيلو على أن يتحالف مع آراجيس ، دوق بنفنتوم ، ومع البيزنطيين ومع الهون ضد شارلمان . انظر : ديفز : ص ١٢١ . [المترجم]

(٣) نهر ليخ هو أحد روافد نهر الدانوب وطوله ٢٨٥ كم . انظر : Moore, P. 447 . [المترجم]

وبعد أن أقام شارلمان معسكره على ضفاف ذلك النهر قرر اختبار موقف الدوق (تاسيلو) قبل دخوله الاقليم ، عن طريق ارسال مبعوث اليه • واعتقد تاسيلو بأنه ليس من مصلحته الشخصية ولا من مصلحة شعبه أن يستمر في عناده ، ولهذا فقد استسلم للملك وقدّم الرهائن المطلوبة ، وكان من بينها ابنه ثيودو Theodo ، وأقسم ألا يصغي لأي امرىء يحاول أن يثنيه عن ولائــه لشارلمــان •وهكذا فان هذه الحرب سرعان ما انتهت وكان يبدو بوضوح أنها ستكون حرباً بالغــة القسوة(١) •

وعلى أية حــال فقد استدعي تاسيلو ، فيما بعد ، الى مجلس الملك(٢) • ولم يسمح له بمغادرة البلاد ، ولم يعد حكم ذلك الاقليم الــذي كان تاسيلو هو المسؤول عنه سابقا يعهد الى دوق Duke بل الى كونتات Counts (٣) •

---

(١) في عام ٧٨٧ م علم شارلمان أن تاسيلو يخطط للقيام بالثورة ، فبادر بالزحف نحو بافارية ، ولم يجرؤ تاسيلو على المواجهة واضطر ان يلتقي مع العاهل الفرنجي في سهل ليخ وأن يسلمه الدوقية على أن يتلقاها منه اقطاعــا فيصبح وفق التقاليد الاقطاعية « رجل الملك ».وقدم تاسيلو ابنه رهينة. انظر : Fichtenau, P. 22 ; Stephenson, PP. 175 - 76 .

(٢) سرعان ما تدهورت العلاقة بين شارلمان وتاسيلو • وربما اتهم تاسيلو بأنه قد حرّض الآفار ضد الفرنجة. وفي صيف ٧٨٨م استدعى شارلمان الدوق تاسيلو الى المجلس العام الذي عقد في انجلهيم • ولم يكن تاسيلو يدري ما خبأ له شارلمان ، حيث اعتقل فور وصوله • ومع أن المجلس قد أصدر قرارا باعدام تاسيلو الا أن شارلمان خفف قرار الحكم واكتفى بنفي تاسيلو وأفراد أسرته الى أحد الاديرة •
انظــر : Cam. Med. Hist., 11, P. 607 ; Stephenson, PP. 175 - 76 .
Fichtenat, P. 22 ; Pirenne, Hist. of Furope, P. 82 .

(٣) لقد أسفرت حملة شارلمان على بافارية عام ٧٨٧م،وعزل تاسيلو عام٧٨٨م، عن تحول بافارية من دوقية شبه مستقلة الى جزء حقيقي من المملكــة الفرنجية تسير وفقا للنظم الادارية الفرنجية • وقام شارلمان بتقسيــم بافارية الى كونتيات اقطعها لأتباعه وعين جيرولد Gerold ، وهو أخو زوجته هلدجارد ، حاكما على بافارية • هذا فضلا عن أن هذه الحملة جعلت الصدام بين الفرنجة والآفار أمراً مؤكداً • انظر تفاصيل ذلك عند : موس : ص ٣٥٠ ، أيضا : Keen, P. 31 ; Fichtenau, P. 22 ; Painter, P. 78

[المترجم]

الفصل الثاني عشر

الحـــرب السلافيـــة

بعـــد هذه الثورات ، التي نجح شارلمان في قمعها ، أعلن الحرب ضد السلاف Slavs [1] ، المعروفين عموما ، فيما بيننا ، باسم الويلزي Wilzi غـــير أنهم يسمون في لغتهم الخاصة باسم الويلاتابيان Welatabians وكـــان السكسون قوات مساعدة في هذه الحملة معا لقبائل التي انضمت الى رايـــة الملك شارلمان عندما قام باستدعائها ، غير أن طاعة السكسون لشارلمان كانت تفتقر الى الاخلاص والصدق .

---

(١) السلاف عناصر آسيوية . وهم في الاصل مجموعة من الشعوب الاوربيـــة القديمة التي كانت تقطن في المنطقة الواقعة الى الشمال من جبال الكربات ، ما بين نهر الفيزل والدنيبر ومن المعروف ان السلاف تعرضوا ، في أوائل العصور الوسطى،الى كثير من المتاعب بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم من الجنوب والشرق وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال، مما عرض الكثيرين منهم للاستعباد ، حتى أن كلمة عبد Slave اشتقت في كثير من اللغات الاوربية من اسم السلاف ، وانقسم السلاف بعد هجرتهم، حوالي عام ٥٠٠ م ، الى سلاف شرقيين وهـــم : الروس والاوكرانيون والروس البيض ، والى سلاف جنوبيين وهم : السلوفونيون والكرواتيون والصرب والبلغار والـــى سلاف غربيين وهم : البولونيون والتشيكيون والسلوفاكيون . تنصر السلاف في القرنين التاسع والعاشر ، حيث اعتنق السلاف الغربيون المسيحية على المذهب الكاثوليكي،في حين اعتنق السلاف الجنوبيون والشرقيون المسيحية على المذهب الارثوذكسي . وقد أطلـــق المؤرخون والجغرافيون العرب على السلاف اسم الصقالبة أو سقالب. انظر Cam. Med. Hist., 11, PP. 349 ff. [المترجم]

وكان السبب في هذه الحرب التي أعلنت ضد السلاف هو أن هؤلاء استمروا يضايقون البودريتي Abodriti [(١)] ، ــ الذين كانوا حلفاء قدامى للفرنجة ــ بغاراتهم المستمرة برغم كل الأوامر والتحذيرات التي صدرت عن شارلمــان .

كان لعدد كبير من القبائل مستوطنات على شواطىء خليج[(٢)] ، غــير معروف طوله ، في حين أن عرضه لم يزد على مئة ميل ، بل كان أضيق مــن ذلك في مواضع عدة ، ويمتد نحو الشرق من المحيط الغربي[(٣)]، حيث استوطن

---

(١) البودريتي قبائل سلافيــة كانت تعيش علــى نهر الإيلبة في غربي منطقــة ماكلنبورغ واعترف البودريتي بسيادة شارلمان عليهم وشاركوه في حملاته ضد السكسون ، وعندما رحّل شارلمان سكان منطقة النوردالبيجيان من السكسون عام ٨٠٤ م منح هذه المنطقة للبودريتي . انظر : الفصل السابع من هذا الكتاب ، انظر أيضا :

Cam. Med. Hist., 11, PP. 444, 454, 614 .

[المترجم]

(٢) المقصود بكلمة الخليج هو بحر البلطيق ، وهو بحر في اوربة الشمالية . محاط بالدانمارك والسويدوفينلندة والاتحاد السوفييتيوبولنده والمانية. مساحته ٤٢٢ ألف كم٢ . وأعمق نقطة فيه تبلغ ٤٣٦ ميلا . يصب فيــه عدد كبير من الانهار . Moore, Op. Cit., P. 76 .

[المترجم]

(٣) يقصد المؤرخ بالمحيط الغربي المحيط الاطلسي (الاطلنطي) او ما كان يعرف ببحر الظلمات . وهو يعتبر المحيط الثاني في العالم من حيث المساحة ، ويقع بين أوربة وافريقية في الشرق والشمال والجنوب وأمريكة في الغرب. مساحته ٨٣ مليون كم٢ . ويقول الحميري : وهــو البحر المظلم الــذي « لا يعلم احد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره واظلامه وتعاظم موجه وكثرة اهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه » . الحميري : ص ٣٢ [المترجم]

على الشاطىء الشمالي لهذا الخليج، وعلى كل الجزر المجاورة له، الدانماركيون Danes والسويديون Swedes الذين نسميهم نحن باسم النورمان Northmen[١] ، أما الشاطىء الجنوبي فقد كان مأهولا بالسلاف والآيستي Aestii [٢] اضافة الى قبائل أخرى متعددة .

غير أن زعامة هذه القبائل كانت للويلاتابيان الذين أعلن شارلمان الحرب عليهم ، واستطاع بقيادته للحملة أن يسحق قونهم ويخضعهم لسلطانه حتى غدوا مقتنعين أن الحكمة في اطاعة أوامره وتنفيذ رغباته[٣] .

* * *

---

(١) الدانماركيون والسويديون هم من العناصر الجرمانية التي سكنت شبه جزيرة اسكندنافية وحوض بحر البلطيق . وقد أطلق على هذه العناصر اسم الفيكنج ، أي سكان الخلجان . كما عرف الفيكنج باسم النورمان ، أي الشماليين . وقد استمر هؤلاء يعيشون في عزلة عن العالم الروماني والبحر المتوسط حتى القرن التاسع الميلادي ، حيث بدأوا يشنون غاراتهم على أوربة الغربية ، ومن ثم تحولت هذه الغارات الى حملات منظمة تستهدف الاستقرار في البلاد التي استولوا عليها . ودخل الفيكنج ، في آخر الامر ، في الديانة المسيحية وتقبلوا الثقافة المرتبطة باللغة اللاتينية . انظر : Stephenson, PP. 200 - 201 . [المترجم]

(٢) الآيستي من الاقوام الجرمانية ، يذكرهم المؤرخ اللاتيني تاكيتوس في مؤلفه « طبائع الجرمان » حيث يقول : وتقيم قبائل الآيستي على الشواطىء الشرقية للبحر السويفي (البلطيق)،وهؤلاء يشبهون السويف في ملابسهم وعاداتهم ودياناتهم . وسكن الآيستيون في الولايات المعروفة حاليا باسم بروسية وكورلاند واستونية . ولم يزل اسم هذه القبائل تعرف به ولاية استونية . [المترجم]

(٣) يبدو أن هذه الاحداث وقعت عام ٧٨٩ م . عندما قام شارلمان في العام المذكور بحملة كبيرة لفتح اقليم الويلاتابيان (الويلزيين) . وعبر نهر الإيلبة بقواته ، وتقدم مكتسحا مناطق هذه القبائل السلافية . واضطر القادة الويلزيون الى أداء يمين الولاء والطاعة للعاهل الفرنجي . ولكن ليس لدينا أدلة كافية فيما اذا كان خضوع هذه القبائل للفرنجة خضوعا دائما وكاملا. انظر : Cam. Med. Hist., 11, P. 614 . [المترجم]

الفصل الثالث عشر

الحرب مـــع الهــون

وتبع ذلك نشوب الحرب ضد الآفار Avars أو الهون Huns [1]، وقــد كانت هذه الحرب ـ باستثناء الحرب التي قادها شارلمان ضد السكسون ـ من أعظم الحروب التي خاضها ، فقد شرع بها بحماسة لا تضاهيها حماســة لأية حرب أخرى ، كما كانت استعداداته الكبيرة لها لا تضاهيها استعدادات لأيــة حرب أخرى[2] .

---

(١) يخطىء أينهارد في اعتبار الآفار من الهون . ومع أن الأمتين (الآفار والهون) شعوب آسيوية وجاءتا من موطن واحد ، وهو وسط آسية ، وهما مــن أصل تركي ، فان الهون سبقوا الآفار في قدومهم من موطنهم بنحو قرنين من الزمان ، اذ كان قدوم الهون في أواخر القرن الرابع الميلادي ، حيث أقاموا امبراطورية لهــم في أواسط الدانوب ، في حين كان قدوم الآفار في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي،حيث استقروا كأسلافهم الهون في وادي الدانوب (السهل الهنغاري) وأسسوا مملكة لهم امتدت علــى طول الاراضي التي تكون في عصرنا الحديث الجزء الشرقي للمجر (هنغارية). ومن موقعهم هذا شن الآفار ، خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين ، الغارات على الامبراطورية البيزنطية وبلغارية ، حتى اضطر أباطرة بيزنطة الى أن يشتروا سكوت الآفار بدفع كميات كبيرة من الاموال . ويهمنا أن نؤكد على أن الفرنجة ، في عهد شارلمان ، اصطدموا بالآفار وليس بالهون. انظر : Keen, PP. 31 - 33 ; أيضا : موس : ص ٣٥٤ .
[المترجم]

(٢) إن ضم بافارية الى المملكة الفرنجية جعل هذه المملكة تتاخم مملكة الآفار ، وبالتالي أصبح الصدام بين شارلمان والآفار أمراً متوقعاً ،وجاءت غارات =

وقاد شارلمان بنفسه حملة واحدة الى بانونية Pannonia [١] ، التي كان يحتلها الهون في تلك الفترة ، ومن ثم عهد بقيادة العمليات الحربية التالية ضد الهون الى ابنه ببين وحكام الاقاليم وحتى الكونتات والضباط . ومع أن هؤلاء قد واصلوا الحرب بشدة وعزيمة كبيرتين فان هـذه الحرب لم تضع أوزارها إلا بعـد سبع سنوات من الصراع [٢] . وقد خلت بانونية من سكانها

= الآفار على بلفاريـة ، والتي اتسمت بالعنف والقسوة ، لتشعـل فتيـل الصراع بين الطرفين ، كما أن تحالف الآفار مع تاسيلو ، دوق بافارية ، ضد شارلمان كان من الاسباب التي ادت الى الحرب بين الفرنجة والآفار . ويضاف الى ذلك ان سيطرة الآفار على طريق الدانوب ، الذي كان وقتذاك الشريان الرئيسي للتجارة بين الشرق والغرب ، جعلت شارلمان يطمع في الاستيلاء على مواقعهم . وربما كانت هذه الاسباب مجتمعة وراء الصراع الذي دار بين الآفار والفرنجة في عهد شارلمان . انظر : موس : ص ٣٥٤ ، ديفز : ص ١٢٧ ــ ١٢٩ ، عاشور : النهضات ، ص ٧٩ ، اسحق عبيد : ص ٢١١ . [المترجم]

(١) بانونية منطقة على نهر الدانوب ، يقع معظمها اليوم في هنغارية (المجر) . وقد اتخذها الهون منذ قدومهم الاول في أواسط القرن الرابع الميلادي مقـراً لهـم . [المترجم]

(٢) كانت الحملة الاولى ضد الآفار ، عام ٧٩١ م ، تحت قيادة شارلمان نفسه ويؤازره جيش آخر من اللومبارديين بقيادة ابنه ببين . وقد سار شارلمان منحدراً مع نهر الدانوب وامعن في فتح اقليم الآفار حتى ملتقى الدانوب مع نهر الراب . واضطر الآفار ــ الذين استبد بهم الخوف ــ الى التخلي عن الخط الاول من حصونهم في غابات فيينة ولجأ بعضهم الـى الفـرار وبعضهم الآخر وقع في الاسر ، في حين لقي عدد كبير منهم مصرعهم . وأذعن لشارلمان نصف مملكة الآفار . وتحتم على شارلمان أن يرتد بسبب اقتراب فصل الشتاء من ناحية واندلاع ثورة في سكسونية من ناحية أخـرى . فترك أمر متابعة الحرب ضد الآفار الى ابنه ببين وإلى حاكم بافارية ودوق فريولي . وقد انتهت هذه الحرب بانتصار الفرنجة وتدمير مملكة الآفـار تدميراً كاملا عام ٧٩٦ م . انظر :
Cam. Med. Hist., 11, P. 607 ; Obolensky, PP. 95, 113. Painter, P. 78 .

[المترجم]

تماماً ، وتحوّل موقع قصر الخان الى صحراء جرداء ، حيث لم يعد هناك أي أثر يدل على وجود انساني ، وهذا كله يدل على كثرة المعارك التي دارت خلال تلك السنوات السبع ، وعلى الدماء الغزيرة التي أريقت فيها . إن فئة النبلاء الهونية كلها أفنيت في هذا الصراع واندثر معها كل ما كان لها من مجد .

لقد استولى الفرنجة على كل الأموال والكنوز التي كان قد كدسها الهون خلال سنين عديدة ، وهم لا يذكرون حربا أخرى جلبت لهم مثل هذه الثروات وتلك الغنائم على كثرة ما خاضوا من الحروب .

كان الاعتقاد السائد أن الهون شعب فقير ، غير أن ما وجد في قصر الخان من كميات كبيرة من الذهب والفضة ، وما حصل عليه الفرنجة من أسلاب ثمينة في المعركة ، تجعل المرء يميل الى الاعتقاد بأن الفرنجة قد أخذوا بحق ما كان الهون قد انتزعوه ، سابقاً ، من الأمم الاخرى ، بغير حق[1] .

لقد سقط في هذه الحرب من زعماء الفرنجة اثنان فقط ، وهما اريك Eric [2] ، دوق فريولي ، الذي قتل في تارساتش Tarsatch ، وهي مدينة على

---

(١) تقدر بعض المراجع ان ما حصل عليه الفرنجة من الحلقة ، عام ٧٩٦ م ، حمولة خمس عشرة عربة يجر كل منها اربعة من الثيران . وهذا الرقم غير مبالغ فيه ، لأن بيزنطة ، على سبيل المثال ، كانت تدفع لخانات الآفار ، ولمدة قرن من الزمن ، جزية سنوية تقدر ما بين ٨٠٫٠٠٠ — ١٠٠٫٠٠٠ صولدي ذهبي . وتشير هذه المراجع الى ان الاسلاب التي حصل عليها الفرنجة من الحلقة الرئيسة للآفار في ذلك العام قد ذهب قسم منها الى اكس لاشابيل وقسم أرسل الى مدينة رومة . انظر :
Fichtenau, PP. 79 - 80 [المترجم]

(٢) لعب آريك ، دوق فريولي ، دوراً بارزاً في الصراع الدائر بين الفرنجة والآفار . ففي عام ٧٩٥ م تقدم على الدانوب واقتحم الحلقة الكبيرة التي تتكون من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعتقل الرئيسي للآفار ، واستولى على كنوز هائلة من الذهب والمنسوجات النفيسة ، وهي الغنائم التي حصلت عليها أجيال الآفار المتعاقبة ، والتي يرجح أن معظمها قد انتهب من الامبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها . انظر : موس : ص ٣٥٤ . [المترجم]

ساحل ليبورنية Liburnia [١] ، نتيجة غدر السكان به ، والثاني هو جيرولد Gerold [٢] ، حاكم بافارية ، الذي لقي حتفه في بانونية ، حيث ذبح مع اثنين من الرجال كانا برفقته بأياد مجهولة ، وذلك عندما كان ينظم صفوف قواته ويطوف خلال خطوط القتال يشجع رجاله استعداداً لخوض المعركة مع الهون.

لقد كان عدد قتلى الفرنجة في هذه الحرب قليلا ، اذا قيس بحروبهم الأخرى ، على طول أمدها وضراوة معاركها وبالغ أهميتها ، وقد انتهت الى نتيجة مرضية سعيدة بأقل ما يمكن من الدماء المراقة [٣] .

* * *

(١) ليبورنية : هي المنطقة التي تقع على الشاطىء الشرقي للادرياتي ، اشتهر سكانها بالملاحة والقرصنة . وهي حاليا منطقة في يوغسلافية .

[المترجم]

(٢) جيرولد : هو شقيق هلدجارد ، زوجة شارلمان . وكان شارلمان قد عين جيرولد حاكماً على بافارية عند ضمها الى مملكة الفرنجة . انظر :

Keen, P. 31 . [المترجم]

(٣) لعل أهم النتائج التي أسفرت عن الصراع بين الفرنجة والآفار هي ضم أراضي الآفار الى المملكة الفرنجية ، وتقسيمها الى مناطق ، حيث الحق قسم منها بمنطقة بافارية وضم قسم آخر الى ايطالية . وبذلك هدم شارلمان دولة آسيوية افزعت أرجاء اوربة الشرقية ، وسيطر الفرنجة ، بذلك ، على الجزء الشمالي الغربي من شبه جزيرة البلقان . وقد تنصر الآفار وذابوا ولم نعد نسمع عنهم انهم امة مستقلة . انظر : دوسن : ص : ٢٦٦ ، ايضا : Obolensky, PP. 95, 113 ; Fichtenan, PP. 22 - 23 .

[المترجم]

الفصل الرابع عشر

الحـــرب الدانماركيــة

كانت الحرب السكسونيــة قــد آلت الـــى نهايتهــا بنجــاح بعــد فتــرة طويلــة منا لصراع ، كمــا أن الحروب مــع البوهيميين واللينونيان Bohemian and Linonian Wars [1] ، التي نشبت فيما بعــد ، لم تستمر طويلا ، وذلك لأن الحربين كلتيهما قــد أنجزتا بسرعــة مذهلة تحت قيــادة شارل الاصغر[2] .

---

(١) المقصود بالحرب البوهيمية هي تلك التي وقعت بين الفرنجة والتشيكيين ما بين عام ٨٠٥ وعام ٨٠٦ م ، ومع أن شارلمان ارسل حملتين ضـــد التشيكيين الا انه لم يحقق نتائج حاسمة . ومن ثم اقام شارلمان حكومــة الثغر التشيكي (البوهيمي) وعهد بها الى أحد قواده الذي نجح في مــد النفوذ الفرنجي . ويبدو أن البوهيميين كانوا يدفعون جزية سنويــة الى شارلمان . اما الحرب اللينونيانية فقد وقعت عام ٨٠٨ م .

[المترجم]

(٢) شارل هو اكبر ابناء شارلمان ، وكان والده قد منحه لقب ملك نوستريــة الغربية عام ٧٩٥ م . غير أن المجال في نوسترية لم يكن من الاتســاع ليشبع طموحات شارل هذا الذي ثبتت جدارته الحربية في اكثر من مناسبة . ولهذا فقد درج على أن يقيم بمملكة ابيه ، خاصة انه كان من المقرر بأنــه هو الذي سوف يخلفه على العرش الامبراطوري . غير أن شارل توفي عام ٨١١ م ، اي قبل وفاة والده شارلمان بثلاث سنوات . انظر :

Cam. Med. Hist., 11, P. 625 ; Fichtenau, P. 41 .

[المترجم]

إن آخر الحروب التي خاضها شارلمان كانت تلك الحرب التي أعلنها ضد النورمان Northmen الذين يعرفون باسم الدانماركيين • لقد بدأ هؤلاء الدانماركيون حياتهم قراصنة ، وعمدوا الى تخريب سواحل غالية وألمانية بأسطولهم الضخم •

لقد كان قلب جودفريد Godfred ، ملك الدانماركيين مفعما بمطامح جوفاء ، حتى إنه تطلع الى مد امبراطوريته فوق ألمانية كلها ، كما أخذ ينظر الى سكسونية وفريزية Frisia وكأنهما من أقاليم امبراطوريته • وكان قد أخضع ، سابقاً ، جيرانه البودريتي Abodriti وجعلهم تابعين له ، وأخذ يعلن بخيلاء أن جيشه الكبير سيظهر قريبا أمام اكس لا شابيل Aix - La - Chapelle حيث بلاط الملك شارلمان[1] •

وكانت كلمات ملك الدانماركيين تحمل في طياتها شيئا من الاعتداد والثقة رغم كونها فارغة ، وكان من المنتظر أن يخوض معارك توعد بايقاد نارها ،

---

(١) ان الفتح الكارولنجي لبلاد الفريزيين والسكسون خلق المخاوف لدى الدانماركيين ، فقد جعل هذا الفتح الامبراطورية الكارولنجية متصلة اتصالا مباشراً بالبلاد الدانماركية ، وسرعان ما ساد سوء التفاهم بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الفارين من وجه شارلمان تحت حماية الدانماركيين ، بل ان بلاط الملك الدانماركي كان لفترة طويلة مركزاً لمقاومة السكسون ضد شارلمان ، كما كان الدانماركيون ، الذين كانوا عملاء تجاريين للفريزيين قد استاؤوا من شل نشاطهم التجاري . غير أن السبب المباشر للصراع بين شارلمان والدانماركيين هو ما حدث عام ٨٠٨ م عندما زحف ملك الدانمارك ضد قبائل البودريتي التي كانت متحالفة مع شارلمان. انظر : Cam. Med. Hist., 11, PP. 613 - 14 .

[المترجم]

لكن موته المبكر أنهى كل شيء ، فقد قتل بيد أحد حراسه ، وبذلك انتهت حياته والحرب التي كان قد بدأ بهـا[1] .

* * *

(١) بناء على أوامر الملك الدانماركي ــ جودفريد ــ هبط على فريزية (المحتلة من قبل الكارولنجيين) اسطول دانماركي مؤلف من مائتي سفينة مشحونة بالقراصنة ، وذلك عام ٨١٠م. واستباح هؤلاء القراصنة سواحل فريزية. ولم يرحلوا الا بعد أن حصلوا على اتاوة من السكان. وأعلن الملك الدانماركي ــ الذي ظل أثناء هذه الاحداث في وطنه ــ بأنه سيهزم شارلمان في معركة مكشوفة ويشق طريقه الى اكس لاشابيل . وعندما سمع شارلمان بذلك استشاط غيظا وتوجه في الحال (٨١٠ م) على راس جيش ضخم الى فردان انتظاراً لهبوط الدانماركيين . وهذا يدل على أنه مضى الوقت الذي كان فيه شارلمان هو الذي يحمل زمام المبادرة في الهجوم على أعدائه . وسرعان ما تلقى شارلمان أنباء تشير الى أن جودفريد قد لقي مصرعه ، في العام نفسه ٨١٠م على يد شاب معتوه، وبالتالي فقد زال خطر الدانماركيين بالنسبة الى الفرنجة ، خاصة أن خليفته على العرش الدانماركي ، وهو ابن اخته واسمه هيمنج ، اسرع في عقد معاهدة سلام مع شارلمان . فعاد شارلمان دون قتال . انظر :

Fichtenau, PP. 178 - 80 ; Cam. Med. Hist., 11, P. 614 .

الفصل الخامس عشر

حـــدود فتوحات شارلمـــان

تلك كانت الحروب التي خاضها هذا الملك الجبار خلال حكمه الـــذي استمر سبعا وأربعين سنة ، وقد أعد لها بمهارة فائقة وأنجزها بنجاح كبير • واستطاع بذلك أن يوسع ، الى حد كبير ، المملكة الفرنجية • ومع أنه كـــان قد تسلم هذه المملكة ، وهي كبيرة وقوية ، من أيادي والده الا أنه أضاف الى رقعتها السابقة أكثر من ضعفها •

إن سلطة الفرنجة كانت مقتصرة سابقا على ذلك الجزء من غالية،المحصور بين الراين Rhein [1] واللوار Loire [2] والمحيط Ocean [3] وبحر البليار

---

(١) ينبع نهر الراين من جبال الالب ويجري نحو الشمال والشمال الغربي ، ويصب في بحر الشمال • طوله ١٣١٩ كم • يرتبط بعدة انهار أوربية مثل الدانوب • يعتبر الراين من أهم طرق الملاحة النهرية في أوربة الغربية • شكل الراين في العصور الرومانية الحد الشرقي لبلاد الغال ، كما انه تمتع بأهمية استراتيجية كبيرة لعدة قرون وبخاصة بالنسبة الى فرنسة والمانية Moore, P. 652 . [المترجم]

(٢) ينبع نهر اللوار من الكتلة المركزية في وسط فرنسة ، ثم يتجه نحو الشمال ثم الى الشمال الغربي ماراً بأورليان وتور • وهو أطول نهر في فرنسة ، حيث يبلغ طوله ١٠٠٩ كم ، ويصب في خليج بسكاي في المحيط الاطلسي • Moore, P. 446 . [المترجم]

(٣) المقصود بالمحيط هو المحيط الاطلسي (الاطلنطي) • انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب • [المترجم]

Balearic sea [1] وكذلك اشتملت على ذلك الجزء من ألمانية الذي كان يسكنه . الذين يسمَّون بالفرنجة الشرقيين Eastern Franks [2] والذي تحيط به سكسونية والدانوب Danube [3] والراين والساله Saale [4] ، علما بأن

---

(١) بحر البليار المقصود به جزائر الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وتعرف بجزر البليار وكذلك باسم الجزائر الشرقية لوقوعها الى الشرق من الاندلس واكبر هذه الجزر جزيرة ميورقة وأوسطها منورقة وأصغرها يابسة . وقد خضعت هذه الجزر عبر التاريخ لحكم القرطاجيين والرومان والفاندال والبيزنطيين والعرب المسلمين ، ونجح شارلمان في مد نفوذه الى هذه الجزر عام ٧٩٩ م لحرمان عرب الاندلس من اتخاذها قواعد للاغارة على شواطىء ايطالية وغالية الجنوبية . ولكن لا ندري هل كانت سيادة شارلمان على هذه الجزر سيادة حقيقية ؟ وهل كان خضوعها له كاملا ؟ وما موقف سكانها من الحكم الفرنجي؟. انظر : الحميري: ص ٥٤٩ ، سالم والعبادي: ج٢ ، ص ١٢٥ ، طرخان : ص ٦٩ — ٧٠ . [المترجم]

(٢) هم فرع من الفرنجة ، وكانوا قد عاشوا على ضفاف الراين واستقروا مع بقية الفرنجة داخل حدود الامبراطورية في القرن الرابع الميلادي . وزحفوا جنوبا واستولوا على كولن وتريف في أواسط القرن الخامس.وفي عام٤٧٠م اقاموا مملكة لهم في تلك المنطقة . وتمكن الملك الفرنجي كلوفيس (٤٨١ — ٥١١م) من القضاء على مملكة الفرنجة الشرقيين واحتلال اقاليمهم وانتزاع الاعتراف به سيداً عليهم . انظر :

Cam. Med. Hist., 11, P. 115 ; Stephenson, P. 69 .

[المترجم]

(٣) الدانوب هو ثاني أطول نهر في أوربة . ينبع من الغابة السوداء في ألمانية ويجري عبر ثمانية بلاد ويصب في البحر الاسود . طول نهر الدانوب ٢٨١٦كم . ويعتبر أعظم الانهار أهمية في وسط وجنوب شرق أوربة.انظر:

Moore, P. 216 .

[المترجم]

(٤) الساله هو نهر في ألمانية طوله ٤٢٦ كم . ويعرف أحيانا باسم نهر الساله السكسوني (الثيورنجي) لكي يميز عن نهر قصير اسمه نهر الساله في مقاطعة فرانكونية . ينبع من جبال فيشتل ، في وسط ألمانية ، ويتجه شمالا ، حيث يصب في نهر الإيلبة . انظر : Moore, P. 673 .

[المترجم]

هـذا النهـر الاخـير يفصـل بـين الثيورنجيين Thuringians [1] والصرب Sorabians [2] ، وشملت ساطة الفرنجـة كذلك بلاد الالمان Alemanni [3] والبافاريين Bavarians [4] .

أما شارلمان فقد تمكن بحروبه الطويلةا لتي ذكرناها من اخضاع أقطانية Aquitania [5] وجاسكوني Gascony [6] وكـل اقليم البرانس Pyrenees

---

(١) الثيورنجيون قبائل جرمانية اقامت دولة صغيرة على الضفة اليسرى لنهر الرايـن . وفي عـام ٤٨٦ م هاجـم كلوفيس الثيورنجـين وأجبرهـم على الخضوع له وضم المقاتلين منهم الى صفوف قواته . انظر :
Cam. Med. Hist., 11, PP. 110 - 111 .

[المترجم]

(٢) الصرب هم من العناصر السلافية الجنوبية . عاشوا ما بين نهر الإيلبـة والسـاله . كانت علاقتهم بالفرنجة متذبذبة . في عام ٧٨٢ م هاجم الصرب اقليم الثيورنجيين عدة مرات . وفي عام ٨٠٦ م هزم الصرب على يد شارل الاصغر ابن شارلمان وأجبرهم على الخضوع ، غير أنه لم يحدث اندمـاج حقيقي لاقليم الصرب في امبراطورية شارلمان . انظر :
Cam. Med. Hist., 11, P. 614 .

[المترجم]

(٣) الالمان هم مجموعة من القبائل الجرمانية الغربية السوابية . انتصر عليهم الرومان في أواسط القرن الرابع الميلادي . وفي القرن الخامس انتشروا في مناطق الالزاس والى الشمال من سويسرة الحالية . أخضعهم كلوفيس عام ٥٠٠ م بعد حروب دامية . انظر :
Cam. Med. Hist., 11, PP. 112 - 113 .

[المترجم]

(٤) عن البافاريين انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٥) عن أقطانية انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٦) عن جاسكوني : انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب .
[المترجم]

حتى نهر إيبرو Ebro [١]،الذي ينبع من أراضي النافار Navarrese [٢] ويجري عبر معظم الاقاليم الخصبة في اسبانية ويصب في بحر البليار تحت أسوار مدينة طرطوشة Tortosa [٣] • ثم أخضع شارلمان كل ايطالية وألحقها بمماكته من

---

(١) إيبرو : نهر في اسبانية . كان يعرف في العصور القديمة باسم إيبروس أو هيبيروس طوله ٩١٧ كم . ينبع من جبال كانتابرين ، ويجري باتجاه الجنوب الشرقي نحو البحر المتوسط . وقد استخدم هذا النهر منذ العصور الاسلامية . اتخذ اسمه نسبة الى الشعب الايبيري الذي كان يعيش على ضفافه وفي شبه الجزيرة الايبيرية .
Moore, P. 245 .

[المترجم]

(٢) يقع اقليم النافار في اسبانية . ويمتد من غربي جبال البرانس على طول الحدود الفرنسية في الشمال والى نهر إيبرو في الجنوب . ويروى هذا الاقليم بمياه نهر إيبرو وفروعه . ومن المعروف ان مملكة النافار تأسست في القرن التاسع من الاراضي التي كان يسكنها الجسكونيون والتي قامت في شمالي اسبانية وامتدت الى الجنوب الغربي من فرنسة . القسم الاسباني منها يقع في جنوبي البرانس ، وضم الى اسبانية عام ١٥١٥ م في حين ضم القسم الشمالي الى فرنسة عام ١٥٨٩ م . انظر :
Moore, P. 542 .

[المترجم]

(٣) وهي مدينة طرطوشة في الاندلس . وقال عنها ياقوت بأنها « تقع شرقي بلنسية وقرطبة ،قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر ابره ولها ولاية واسعة ... تحلها التجار وتسافر منها الى سائر الامصار » . ويضيف الحميري بأن طرطوشة غنية بخشب الصنوبر وعليها « سور صخر من بناء بني أمية على رسم أولي قديم .. ولها أربعة أبواب .. » . ياقوت: ح٤ ، ص ٣٠ ، الحميري : ص ٣١٨ .

أوستة Aosta (١) حتى كلابرية السفلى Lower Calabria (٢) ، حيث ان خط الحدود يمر بين البنفنتيين Beneventans والاغريق Greeks (٣) ، وهي منطقة يزيد طولها على ألف ميل • كما أخضع شارلمان أيضا سكسونية التي تشكل جزءاً كبيراً من ألمانية ، ويقدر أن عرضها ضعفا عرض الاقليم المأهول بالفرنجة ، في حين أنه يماثله طولا • وأخضع ، بالاضافة الى ذلك ، كلا من بانونية Pannonias (٤) وداكية Dacia (٥) الواقعتين خلف نهر الدانوب،وكذلك

---

(١) أوستة مدينة ايطالية . تقع على نهر دورا بالتيا وعلى بعد ٨٣ كم الى الشمال الغربي من مدينة تورين . فيها العديد من الاثار الرومانية . وهي مسقط رأس رئيس الاساقفة المشهور انسليم [ت ١١٠٩]•
Moore, P. 43 .

[المترجم]

(٢) كلابرية اقليم يقع في ايطالية الجنوبية،ما بين البحر الايوني والبحر التيراني مساحته ١٥٠٨٠ كم٢ . والمدينة الرئيسة في هذا الاقليم هي مدينة ريجيو Reggio . وفي العصر الروماني كان يطلق على كعب الحذاء الايطالي اسم كلابرية . انظر : Moore, P. 144 .

[المترجم]

(٣) المقصود بالاغريق هنا الممتلكات التابعة للامبراطورية البيزنطية في ايطالية الجنوبية . [المترجم]

(٤) عن بانونية انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٥) داكية هو اقليم قديم في الجنوب الشرقي من أوربة ، ويتألف من الجزء الاكبر من رومانية الحالية ، وقد سكنه في العصور القديمة شعب اطلق عليه الرومان اسم داكي Daci . أصبح هذا الاقليم رومانيا في أوائل القرن الثاني الميلادي . انظر : Moore, P. 214 .

[المترجم]

ايسترية Istria [1] وليبورنية Liburnia [2] ودالماثية Dalmatia [3] ، عدا المدن الواقعة على الساحل ، حيث تركها للامبراطور الاغريقي ، نظراً للصداقة القائمة بينهما من ناحية ، والتزاماً بالمعاهدة المبرمة بينهما من ناحية أخرى [4] وأخيراً فقد قهر شارلمان وألحق بمملكته كل القبائل البربريـة والمتوحشة القاطنة في

---

(١) ايسترية هي شبـه جزيرة في يوغسلافية وتقـع الى الشمال من البحـر الادرياتي . انظر : Moore, P. 384 .

[المترجم]

(٢) عن ليبورنية انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

[المترجم]

(٣) دالماثية : منطقة في يوغسلافية . وهي تقع على ساحل البحر الادرياتي في كرواتية . سكنها السلاف في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وحكمتها البندقية منذ عام ١٤٢٠ م . ثم انتقل الحكم فيها الى ايسترية عام ١٧٩٧م والى ايطالية عام ١٨٠٥ . وعاد حكم ايسترية ثانية عام ١٨١٥ . اصبحت هذه المنطقة جزءاً من يوغسلافية عام ١٩١٩ماعدا مدينة زارا وبعض الجزر التي ظلت تحت حكم ايطالية حتى عام ١٩٤٧ حيث انتقلت بعد هذا التاريخ الى يوغسلافية . انظر : Moore, P. 215 .

[المترجم]

(٤) المقصود بالامبراطور الاغريقي هنا الامبراطور البيزنطي . وتجدر الاشارة الى أن معظم المؤرخين اللاتين درجوا منذ أيام شارلمان على وصف الامبراطور البيزنطـي والامبراطورية البيزنطية بعبارات تقلل مـن اهمية الامبراطور والامبراطورية معا مثل استخدام : « امبراطور الاغريق » و « امبراطور القسطنطينية » ، وكذلك استخدام عبارة « امبراطورية القسطنطينية » . وكان الاباطرة البيزنطيون يرفضون كل هذه الالقاب لأنهم يعتبرون انفسهم بأنهم « أباطرة رومان »، وامبراطوريتهم هي الامبراطورية الرومانية بقسميها الشرقي والغربي . والمقصود من عبارة اينهارد هو تخلي شارلمان للامبراطور البيزنطي عن بعض مدن دالماثية مقابل اعتراف بيزنطة بشارلمان امبراطوراً عام ٨١٢ م . [المترجم]

ألمانية ، أي في المنطقة الواقعة بين الراين وفيستولة Vistula[1] وبين المحيط والدانوب ، حيث تتكلم جميع هذه القبائل لغة واحدة لكنها تختلف اختلافاً كبيراً في العادات والملابس . أما القبائل الرئيسة منها فهي : الويلاتابيان Welatabians والصرب Sorabians [2] والبودريتي Abodriti [3] والبوهيميون Bohemians [4] . وكان على شارلمان شن الحرب ضد هذه القبائل بالذات ، في حين أعلنت بقية القبائل ، والتي تشكل العدد الاكبر من القبائل البربرية ، خضوعها ، بمحض ارادتها ، لشارلمان .

* * *

---

(١) فيستولة هو نهر في بولنده ، طوله ١٥٩٤ كم . ينبع من غربي جبال الكارباثيان ويتدفق شمالا ومن ثم نحو الشمال الغربي حتى يصب في بحر البلطيق . انظر : Moore, P. 837 .
[المترجم]

(٢) عن الصرب انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٣) عن البودريتي انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .

(٤) عن البوهيميين أو التشيكيين انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

الفصل السادس عشر

العلاقــات الخارجيــة

لقــد ازداد حكم شارلمان تألقاً بما كسبه من ود الكثيرين مــن الملوك والأمم . فقد كان التحالف الذي أقامه مع الفونسو Alfonso ، ملك جيليقية Galicia واشتورياس Asturias ، تحالفاً وثيقاً ، حتى إن الأخير كان يسمي نفسه ، عندما كان يبعث برسائل أو سفراء الى شارلمان ، بأنه عامة (واحد من أتباعه)[1] .

---

(١) جيليقية Galicia مقاطعة تقع في الشمال الغربي من اسبانية ، يحدهـا خليج بسكاي شمالا والمحيط الاطلسي غربا والبرتغال جنوبا. اما اشتورياس (استورية أو استرقة) فانها تقع ايضا في الزاوية الشمالية الغربيـة من اسبانية وتمتد من الاطلسي شمالا الى ما يلامس ، في بعض النقاط ، نهر دويره جنوبا وتتخللها جبال الكانتابرين العاليـة الوعرة . أمـا الاصول التاريخية للمملكة التي قامت في هاتين المنطقتين فانها تعود الى البقيـة الباقية من القوط الغربيين التي ارتدت الى الشمال أمام الفتح العربـي الاسلامي لاسبانية واعتصمت في منطقة اشتورياس الوعرة تحت قيـادة زعيم قوطي يدعى بلاجيوس (أو بلايو او بلاي) الذي نصب ملكا عليهـم عام ٧١٨ م . وقد استغل هؤلاء القوط التمزق والفتن والقلاقل التي كانت تدور بين العرب المسلمين في اسبانية وأخذوا يتوسعون تدريجيا علـى حسابهم . وبعد موت بلاجيوس خلفه ابنه فافيلا ، ومن ثم الفونسو الاول (٧٣٩ ــ ٧٥٧ م) الـذي يعتبر المؤسس الحقيقـي لمملكة اشتورياس وجيليقية . والملك الفونسو الثاني (٧٩١ ــ ٨٤٢) م هو الذي أشار اليه المؤرخ اينهارد في المتن على انه كان على علاقة وثيقة بالعاهل الفرنجـي شارلمان . وتؤكد المصادر على أن النواة الاولى لمقاومة الحكم العربي في اسبانية ومن ثم ما عرف « بحرب الاسترداد » قد بدأت من هذه المملكة . من أجل تفصيل اكثر انظر: المؤرخ المجهول : اخبار مجموعة، ص ٦١ــ٦٢، رينو : ص ٤٧ ، ١١٥ وما بعدها ، عنان : ص ١٣٧ ، ١٨٧ ، طرخان : ص ٩٨ ، عبد العزيز سالم : ص ١٦٩ . [المترجم]

كما أن سخاء شارلمان قد أكسبه صداقة الملوك السكوتلانديين Scots الذين أولوا رغباته اهتماماً واحتراماً بالغين ، وخاطبوه بلقب : سيدهم، وعدّوا أنفسهم رعاياه وعبيده . وهناك رسائل موجودة فعلا كان قد بعث بها هؤلاء السكوتلانديون الى شارلمان أعربوا له فيها عن تلك المشاعر المتعلقة بهذا الخصوص[1] .

وقد كانت علاقاته ودية مع هارون Arons (الرشيد)[2] ملك الفرس King of Persians [3] ، الذي حكم معظم بلاد الشرق باستثناء الهند ، فقد آثر هذا الامير [4] مودة شارلمان على كل ملوك الارض

(١) اطلق الكتاب الكلاسيكيون اللاتين اسم Scoti على سكان سكوتلانده الحالية وعلى بعض أقوام ايرلنده ، وقالوا Scotia للاشارة الى سكوتلانده الحالية . والواقع ان اسم Scotland لا تعني سوى أرض السكوت . اما أولئك الذين عاصروا شارلمان فهم سكان ايرلندة وكانوا من القراصنة والمغامرين الايرلنديين الذين استقروا في اسكوتلانده وذلك اعتبارا من القرن السادس الميلادي [المترجم]

(٢) هو الخليفة العباسي الرابع /١٧٠ ــ ١٩٣ هـ / ٧٨٦ ــ ٨٠٩ م .
[المترجم]

(٣) والواقع أن هذا اللقب الذي يطلقه اينهارد على هارون الرشيد محير للغاية ولا يتفق اطلاقا مع الحقائق التاريخية ، بل هو وهم وقع فيه اينهارد ، كما وقع فيه غيره من كتاب الغرب الاوربي في العصور الوسطى .
[المترجم]

(٤) من الواضح أن اينهارد يستخدم كلمة أمير بمعنى ملك وبمعنى امبراطور . فاذا عدنا الى مقدمته نجده يستخدم هذا اللقب لوصف سيده شارلمان بنفس المعنى . هذا فضلا عن أن كلمة أمير Princeps اللاتينية اشتقت منها كلمة أمير Prince بالانجليزية والفرنسية . وهذا اللقب هو لقب اوغسطس (أوكتافيوس)والذي حمله أيضا خلفاؤه من بعده حتى أصبح النظام الامبراطوري ، من اغسطس حتى وفاة دوقلديانوس ، يعرف باسم النظام الرئاسي Principatus . وقد لجأ أوغسطس الى هذا اللقب مراعاة للتقاليد =

وحكامها ، وبنى علاقته معه على الاحترام والكرم • وعندما قـام السفراء ــ الذيـن أرسلهـم شارلمـان لزيـارة القبر المقدس ومكـان قيـام سيدنـا ومخلصنا ــ بالمثول بين يدي (هارون الرشيد) ومعهم الهدايا نقلوا له رغبات سيدهم (شارلمان) • غير أن (الرشيد) لم يمنحهم ما طلبوه فقط وإنمـا أعطاهم حق امتلاك القبر المقدس ، تلك البقعة المقدسة المباركة[1] •

= الجمهورية الرومانية ، وعزوفا عن استخدام الالقاب الملكية المستهجنة عند الرومان ، ولقب Princeps يعني في الاصل المواطن الأول او الزعيـم الرئيسي [المترجم]

(١) تعود العلاقة بين الفرنجة والعباسيين الى ايام الملك الفرنجي بيبن القصير (٧٥١ ــ ٧٦٨ م) والخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥ م) ، حيث تبادل الطرفان السفارات الودية . وسار شارلمان (٧٧١ ــ ٨١٤ م) على سياسة ابيه ، حيث تبادل السفارات الودية مع هارون الرشيد (٧٨٦ ــ ٨٠٩ م) • ويبدو انه كان لشارلمان مصالح سياسية وتجارية كبيرة رغب في تحقيقها من وراء علاقته الدبلوماسية مع الرشيد ، منها : تسهيل وصول زوار وحجاج وتجار الغرب الاوربي الى الاماكن المقدسة ، والضغط على البيزنطيين ــ أعداء العباسيين ــ ليعترفوا به امبراطوراً على الغرب . اما الرشيد فلم تكن له مصالح سياسية كبرى رغب في تحقيقها من وراء علاقته بشارلمان ، وربما رغب الرشيد في تجنب قيام تحالف هجومي بين بيزنطة والفرنجة ضد بلاده . اما ما تردده بعض المراجع من ان الرشيد رغب في غرس شوكة في جنب الامويين في الاندلس فاننا نستبعد أن يقدم الرشيد على التحالف مع عاهل اجنبي ضد الامويين في الاندلس • اما بالنسبة الى ما يذكره اينهارد في المتن من ان الرشيد منح شارلمان حق امتلاك القبـر المقدس ، فان ذلك خرافة لا تصمد أمام النقد الموضوعي، وذلك للاعتبارات التالية :

١ ــ ان هذه الرواية لم تصل الينا الا من خلال ثلاثة مصادر لاتينية منها رواية اينهارد الغامضة هذه .

٢ ــ لم تذكر المصادر العربية والبيزنطية واللاتينية الاخرى اية اشارة الى هـذه المسألـة . =

وعندما عاد السفراء الى بلادهم بعث (الرشيد) سفراءه معهم الى (شارلمان) يحملون له الهدايا الفاخرة اضافة الى مواد وعطور ومنتوجات قيمة أخرى من البلاد الشرقية . وقبل ذلك بسنوات قليلة كان شارلمان قد

---

٣ ــ كانت الاراضي المقدسة في فلسطين ، وخاصة مدينة القدس ، ذات اهمية دينية وسياسية بالغة بالنسبة الى العرب والمسلمين جميعا ، واهتم بها الخلفاء العباسيون الاوائل اهتماما متميزاً ، حيث زاروها واصلحوا مساجدها ، وبالتالي فإنه من المستحيل أن يمنح الرشيد امتيازات مهمة في فلسطين لعاهل اجنبي .

٤ ــ ان زعم أينهارد لا ينسجم مع روح ذلك العصر ولا يتفق عما عرف عن الرشيد من حرص شديد على المصالح العليا للعرب والمسلمين، السياسية منها والدينية . وساسة الرشيد لا تسمح لنا بالاستنتاج بأنه على استعداد لمنح الفرنجة حقا أو امتيازاً في فلسطين . وصفوة القول ان ما يرويه أينهارد وغيره من المؤرخين الذين تناقلوا روايته ، يعتبر وهما اسطوريا ومغالطات افتعلها أينهارد ليضخم من أمر سيده شارلمان على حساب الحقيقة التاريخية . ربما رجا شارلمان الخليفة أن يقوم الاخير بحماية الحجاج والتجار الاوربيين الذين يزورون الاماكن المقدسة وبأن يسمح له بارسال الصدقات الى كنيسة القيامة . ولا يستبعد أن يكون الرشيد ــ الذي اشتهر بالنبل والحرص على أمن المسيحيين في بلاده ــ قد وعد شارلمان بحماية الحجاج والتجار الاوربيين داخل بلاده وان يكون الخليفة قد وافق على أن يرسل شارلمان التبرعات والصدقات الى المؤسسات الدينية في فلسطين . انظر مناقشة هذه المسألة في المراجع التالية :

فاروق العمر : بحوث في التاريخ العباسي ص ١٩٠ وما بعدها ، عطية : ص ٢٣ ، ٢٦ ، رنسيمان : ج١ ، ص ٤٩ ، ٧٠ ، رينو : ص ١٢١ ، فشر : ج١ ، ص ١٢١ ، لوبون : ص ٢١٥ ديفز : ص ٥٧ ــ ٥٨ ، حسن ابراهيم حسن : ج٢ ، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ ، طرخان : ص ١٤٥ ــ ١٤٦ ، أرسلان : ص ١١٨ ــ ١١٩ ، العاني : سياسة المنصور أبي جعفر : ص ٤٠٢ ، عنان : ص ١٧١ ، الخضري : ج١ ، ص ١٣٣ ، ايضا

Muir, P. 487 ; Boussard, P. 96 ; Pirenne, M. and Ch., PP. 160 - 170 .

[المترجم]

طلب من (هارون الرشيد) فيلا ، وبعث (الرشيد) اليه بالفيل الوحيد الذي كان يملكه[1] .

كمـا قام أباطرة القسطنطينية ، نيقفور Nicephorus[2] ، وميخائيـل

---

(١) على الرغم من انه لم يكن لدى هارون الرشيد سوى فيل واحد فقد بعث به الخليفة الى شارلمان . وكان هذا الفيل مجهزاً بأفخرجهاز . ومن المعروف أن أوربة كانت تجهل الفيل حتى ذلك الوقت ، بل انه منذ أيام هانيبال لم ير الاوربيون في بلادهم فيلا . وقد ظل هذا الفيل يعتبر مدة تسع سنوات أجمل ما يتصف به الثقل الحربي للامبراطور شارلمان من أبهة وعظمة . وقد جرى استخدام هذا الفيل في الحرب بين شارلمان والدانماركيين . انظر : لوبون : ص ٢١٥ ، أرسلان : ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .
[المترجم]

(٢) نيقفور هو الامبراطور البيزنطي نيقفور الاول الذي اعتلى العرش البيزنطي عام ٨٠٢ م بعد خلع الامبراطورة إيرنة . كان نيقفور يعمل وزيراً للخزانة في عهد إيرنة نفسها . ومن المعروف انه كان ناجحا في سياسته الداخلية ، الاقتصادية منها والدينية ، غير انه لم يكن موفقا في حروبه الخارجية . فقد دفع نيقفور جزية سنوية الى الخليفة العباسي هارون الرشيد . وقد لقي نيقفور حتفه على يد البلغار عام ٨١١ م . اما بالنسبة الى علاقته بشارلمان فتشير المراجع المعنية بهذه المسألة الى أن مفاوضات جرت بين شارلمان ونيقفور بهدف حصول الاولعلى اعتراف بيزنطة بلقبه الامبراطوري الذي حصل عليه في ٢٥ كانون الاول من عام ٨٠٠ م في كنيسة القديس بطرس في رومة على يد البابا ليو الثالث . غير أن المفاوضات بين العاهلين، البيزنطي والفرنجي ، لم تؤد الى نتيجة ايجابية بالنسبة الى شارلمان ، وقتل نيقفور دون أن يعترف بشارلمان امبراطورا . انظر تفصيل ذلك : رستم : الروم ، ح١ ، ص ٣١٤ ; Vasiliev, I, P. 271 ;
عمر كمال توفيق : ص ١٢٦ ، ربيع : ص ١٣٢ . Obolensky, P. 95 ;
[المترجم]

Michael [1] ، وليو Leo [2] ، بمبادرات ودية تجاه شارلمان ، وطلبوا منه ــ من خلال عدد من السفارات ــ إقامة صداقة وتحالف معه ، حتى انه عندما لقب شارلمان امبراطوراً وأخذ الشك يساور الاغريق في أنه يخطط لانتزاع الامبراطورية منهم ، أقاموا تحالفاً وثيقاً معه كي يضمنوا عدم قيامه بأي عمل من شأنه أن يلحق الضرر بهم .

---

(١) هو الامبراطور البيزنطي ميخائيل الاول (٨١١ ــ ٨١٣ م) الذي اعتلى العرش البيزنطي بعد مقتل نيقفور الاول . وقد واجه ميخائيل هذا الخطر البلغاري ، حتى أن البلغار وصلوا في عهده الى مدينة أدريانوبل . وفي عام ٨١٣ م خاض الامبراطور ميخائيل معركة طاحنة ضد البلغار ، عند مدينة أدريانوبل ، دارت الدائرة فيها على البيزنطيين وانهزم الامبراطور ميخائيل من ساحة المعركة . وقد ترتب على فشل هذا الامبراطور في مواجهة البلغار أن عزله الجند ونادوا بليو الارمني ، وهو أحد كبار القادة البيزنطيين ، امبراطوراً . فتنازل ميخائيل عن العرش ودخل أحد الاديرة . أما بالنسبة الى العلاقة بين ميخائيل الاول هذا وشارلمان فمن المعروف أن ميخائيل قد بعث وفداً بيزنطياً الى بلاط شارلمان عام ٨١٢ م.وقد وصل هذا الوفد الى العاصمة الفرنجية اكس لا شابيل وهو يحمل اعتراف الامبراطور ميخائيل الاول بشارلمان امبراطوراً . وخاطب أعضاء الوفد البيزنطي شارلمان بلقبه الجديد . ويبدو أن هناك عدة أسباب اضطرت بيزنطة لان تعترف بشارلمان امبراطوراً ، منها خشية الدوائر البيزنطية من العلاقة الودية القائمة بين العباسيين وشارلمان من ناحية والخطر البلغاري الذي كان يهدد الامبراطورية البيزنطية من ناحية ثانية ، والعمليات الحربية التي قام بها شارلمان ضد أملاك بيزنطة في ايطالية من ناحية ثالثة . انظر :
Ostrogrosky, PP. 185 - 88 ; Vasiliev, 1, P. 272 ;

(٢) هو الامبراطور البيزنطي ليو الخامس الارمني الذي اعتلى العرش البيزنطي (٨١٣ ــ ٨٢٠ م) بعد عزل ميخائيل الاول . وكانت أولى أعمال ليو هذا هي انه عني بأسوار القسطنطينية ، للصمود في وجه البلغار الذين ظهروا بعد أيام قليلة على اعتلائه العرش أمام أسوارها . وقد وقع ليو معاهدة صلح مع البلغار بعد موت ملكهم كروم . تآمر على الامبراطور ليو رفاقه في السلاح وقتلوه أثناء الصلاة في الكنيسة عام ٨٢٠ م وتوجوا ميخائيل الثاني امبراطوراً (٨٢٠ ــ ٨٦٧ م) . انظر : Vasiliev, 1, P. 271 ;
أيضا : رستم : الروم ، ج١ ص ٣١٦ . [المترجم]

والواقع أن الاغريق Greeks [1] والرومان Romans [2] كانوا ينظرون، بعين ملؤها الحسد ، الى ما لدى الفرنجة من قوة ، ولهذا فقد اشتهر المثل الاغريقي القائل : « اتخذ من الفرنجي صديقاً ولا تتخذ منه جاراً »[3] .

* * *

---

(١) المقصود بالاغريق هنا سكان الامبراطورية البيزنطية .
[المترجم]

(٢) المقصود بالرومان هنا سكان مدينة رومة .
[المترجم]

(٣) يبدو أن المؤرخ أينهارد لم يكن دقيقا في تصوير موقف بيزنطة من شارلمان ، فالمسألة لم تكن مسألة « حسد » وانما كانت أعمق من ذلك بكثير . ذلك ان بيزنطة كانت تدافع عن حقوق تاريخية لها في الغرب الاوربي. فالبيزنطيون كانوا يعتبرون امبراطوريتهم هي الامبراطورية الرومانية ، والاباطرة البيزنطيون ينظرون الى انفسهم على انهم الاباطرة الرومان ورثة قسطنطين وتيودوسيوس وجستنيان ... والامبراطورية من وجهة نظر بيزنطة لم تسقط في الغرب عام ٤٧٦ م وانما استمرت قائمة فعلا بعاصمتها الجديدة القسطنطينية (رومة الجديدة) . ولهذا كله فقد نظرت بيزنطة الى كل الممالك الجرمانية التي قامت في القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية على انها ممالك بربرية وملوكها برابرة مغتصبون . وعندما توج شارلمان امبراطوراً على يد البابا ليو الثالث عام ٨٠٠ م رفضت بيزنطة الاعتراف به ، في البداية ، واعتبرته مدعيا وبربريا ومغتصبا لحقوقها في الغرب . انظر تفصيل ذلك عند : زيتون : العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني ، ص ٣٢٨ ، أيضا انظر :
Vasiliev, I, P. 265 ; Hussey , PP. 30 - 31, 82 .

الفصل السابع عشر

الاعمـــال العـامـــة

إن الملك (شارلمان) الذي أظهر عظمته (الحربية) في توسيع امبراطوريته واخضاع الأمم الأجنبية ، وانهمك بشكل دائم في وضع الخطط لتنفيذ أهدافه، قام أيضا بأعمال كثيرة أخرى ترمي الى بناء مملكته وتزيينها ، وأنجز عـددآ من هذه الاعمال انجازآ تامآ .

ولعـل تشييد كتدرائية مريـم العـذراء في مدينة اكس لا شابيـل Aix - la - Chapelle [1] يعد من أكثر الاعمال استحقاقآ للذكر ، فقد بنيت هذه (الكتدرائية) بأعجب الاساليب المعمارية[2] .

---

(١) إن مدينة اكس لا شابيل هي مدينة آخن Achen في المانية الاتحادية حاليا ، وهي تقع على بعد ٦٤ كم الى الغرب والجنوب الغربي من كولن قـرب الحدود البلجيكية الالمانية . ويبدو أن المشاريع العسكرية التوسعية التي قام بها شارلمان في الجهات الشرقية من مملكته حتمت عليه نقل عاصمته من باريس الى اكس لا شابيل ، هذا فضلا عن توافر الينابيع العلاجيـة الدافئة في هذه المدينة . وتشير المراجع الى ان شارلمان عمل لكي تكون اكس لا شابيل « رومة الجديدة » . انظر :

Moore, P. 9 . Fichtenau, P. 72 .

(٢) كان شارلمان قد شاد كتدرائية (كنيسـة) العذراء بالقرب من مقره في اكس لا شابيل . ويبدو أنه كان قد بدىء في بنائها عام ٧٩٦ م ، وافتتحها البابا ليو الثالث عام ٨٠٥ م . وقد استخدم في بناء هذه الكتدرائية الاعمـدة الرخامية والافاريز والفسيفساء التي انتزعها شارلمان من قصور رافنـة عندما قضى على المملكة اللومباردية . وقام بالعمل في هذه الكتدرائية نخبة من مهرة المهندسين والصناع الذين استحضرهم شارلمان من مختلف البلاد=

كما أقام شارلمان جسراً على نهر الراين ، عند مدينة مينتس Mayence [1] ، طوله نصف ميل وبعرض النهر عند تلك النقطة . غير أن النار التهمت هـذا الجسر قبل موته بعام واحد وقد عقد شارلمان العزم على اعادة بنائه بالحجارة، الا أن موته ، بعد ذلك بوقت قصير ، حال دون ذلك[2] .

وفي مقدمتهم المهندس المعماري أود ميتز الذي اقام هذه الكتدرائية على نمط كنيسة القديس فيتاله San Vitale برافنـه . ومـن المعروف أن الكنيسة الاخيرة هذه قد أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية والسورية . فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية جانحة في الغرب الاوربي في اواخر القـرن الثامـن الميـلادي . ومـن المعـروف أن شارلمـان دفـن في هذه الكنيسة في ٢٨ كانون الثاني عام ٨١٤ م . انظر : ديورانت :ج١٤ ، ص ٢٣٦ ، ديفز : ص ٢١٨ ، حاطوم : ص ٢٩٧ ، عاشور : النهضات : ص : ٨٣ . [المترجم]

(١) مينتس أو ماينز Mayence , Mainz ، هي مدينة في جمهورية ألمانيـة الاتحادية حاليا . تقع على الضفة اليسرى لنهر الراين وعند ملتقاه بنهـر مَين . اسست في القرن الاول قبل الميلاد . وكانت قد نمت اساسا حول معسكر روماني . وفي العصور الوسطى كانت مركزا تجاريا هاما ، بل أن شارلمان اختار هذه المدينة لتكون مركزا رئيسا للتجارة بين غالية وألمانية . ومنذ القرن الثامن أصبحت ماينز مقراً لرئيس أساقفة . وهذه المدينـة هي التي أطلق عليها الجغرافيون العرب أسم مدينة « مفانجة » . يقـول الحميري : « وهي مدينة عظيمة جداً ... وهي على نهر عظيم ، وبقبلي مفانجة خارج منها كنيسة كبيرة يعظمها النصارى ... وهي كثيرة الحبوب والكروم والفواكه ..» . انظر : الحميري : ص ٥٥٦ ، القزويني : ص٦٠٨ أيضا : Moore, P. 484 . [المترجم]

(٢) أقام شارلمان هذا الجسر عند مدينة مينتس على نهر الراين ، طولـه خمسمائة قدم ، وقد استغرقت اقامته عشر سنوات ، وصنع من الخشب واقيم على دعائم حجرية . وكان الهدف منه هو أن يستخدمه الجيش والتجار الفرنجة . غير أن التيار دفع اليه سفينة مشتعلة بالنار ، فلـم يلبث أن اشتعل الجسر كله خلال ساعات . وكانت هذه الحادثة عام٨١٣م، أي قبل وفاة شارلمان بعام واحد . انظر : ديفز : ص ٢٢٠ ، عاشور : النهضات ، ص ٧٧. [المترجم]

كما باشر شارلمان ببناء قصرين يعدان من أروع ما صنعته مهارة الانسان واحد بالقرب من مزرعته ويدعى انجلهيم Ingelheim (١) ، وهو لا يبعد كثيراً عن مينتس ، والآخر عند نيمجين Nimeguen (٢) ، على نهر الغال Waal (٣) ، وهو النهر الذي يمر بالقرب منا لجهة الجنوبية من جزيرة الباتافيين Batavians (٤)

غير أن العمائر الدينية كانت موضع اهتمام شارلمان على امتداد عهده كله، فان وَجَدَ يد الخراب امتدت اليها طلب من الكهنة والآباء المسؤولين عن

---

(١) شيد قصر انجلهيم عام ٧٩٨ م . وهو بناء شاسع مترامي الاطراف بحيث يتسع لجميع رجال البلاط الامبراطوري. وقد بني على طراز قصور رافنة بايطالية ، ورسم على جدرانه الداخلية جميع قصص مشاهير الرجال والامم مثل كورش والاسكندر وقسطنطين وكذلك رُسم شارلمان جالسا على العرش الامبراطوري . وكان هذا القصر من الناحية الاقتصادية اكتفائيا ، حيث احاطت به المنازل والدكاكين الخاصة بأرباب المهن والعمال الذين يحتاج البلاط الامبراطوري الى خدماتهم مثل الخبازين والنجارين والحدادين .. الخ . انظر : دوسن : ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، عاشور : النهضات : ص ٨٥ [المترجم]

(٢) بنى هذا القصر في مدينة نيمجين التي تقع على نهر الغال قرب مصب نهر الراين . والمدينة هذه هي ميناء نهري هام ، وكانت في الاصل مستعمرة كلتية ثم تحولت الى مستعمرة رومانية، ومن ثم أصبحت حصنا كارولنجيا. [المترجم]

(٣) نهر الغال هو احد روافد نهر الراين . [المترجم]

(٤) الباتافيون قبيلة جرمانية كانت تسكن في دلتا نهر الراين عند مصبه في بحر الشمال. أخضعهم يوليوس قيصر في أواسط القرن الاول قبل الميلاد. وورد ذكرهم في « تواريخ » المؤرخ اللاتيني تاكيتوس (٥٥ — ١٢٠ م)حيث قال بأن الباتافيين عبروا نهر الراين واستقروا في جزيرة في شمالي غالية في المنطقة ما بين جنوب هولندة وشمال بلجيكة . وفي عام ٢٨٨ م احتلها الفرنجة وظلت جزءاً من ممتلكاتهم . [المترجم]

رعايتها القيام باصلاحها ، وأرسل المبعوثين Commissioners [1] ليتحقق من حسن تنفيذ أوامره .

كما أعد شارلمان أسطولا من أجل الحرب مع النورمان[2] ، وقد بنيت المراكب ـ التي أعدت لهذا الغرض ـ على الانهار التي كانت تجري من غالية وألمانية لتصب في المحيط الشمالي[3] .

ونتيجة هيمنة النورمان على الشواطىء الغالية والألمانية واجتياحهم لها أمر شارلمان بوضع نقاط مراقبة وحراسة دائمة على كل المرافىء وعند مصبات الانهار الكبيرة التي تسمح بدخول المراكب اليها ، وذلك لمنع العدو من النزول . أما في الجنوب ، أي في منطقة ناربونة[4] وسبتمانية Septimania [5] ، وعلى طول الشاطىء الايطالي حتى رومة ، اتخذ شارلمان

---

(١) المبعوثون هم الرسل الذين كان يبعث بهم شارلمان سنويا،في رحلات دورية للتفتيش في اقاليم امبراطوريته بهدف السيطرة على الموظفين الملكيين المحليين في تلك الاقاليم . فقد كان شارلمان يبعث الى كل اقليم اثنين من المبعوثين، أحدهما من رجال الكنيسة والاخر من العلمانيين ، ويحمل المبعوثون أوامر شارلمان للموظفين المحليين ويطلعون على أعمالهم ويتلقون الشكاوى من الرعايا . وكان على المبعوثين أن يرفعوا تقاريرهم الى شارلمان عن مهمتهم . ولهذا فقد كان المبعوثون بمثابة حلقة الوصل بين حكام الاقاليم من أدواق وكونتات وبين الحكومة المركزية . والواقع كان هذا النظام ، في ذلك الوقت ، ابتكارا ذكيا ومقنعا وبرهانا على المهارة الادارية في دولة شارلمان . انظر : موس : ص ٣٥٩ ، كانتور : ص ٢١٠ ، ٣٢٤ ، ديورانت : ح١٤ ، ص ٢٣٠ . [المترجم]

(٢) عن النورمان انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب . [المترجم]

(٣) المقصود بالمحيط الشمالي هو بحر الشمال . [المترجم]

(٤) عن ناربونة انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب . [المترجم]

(٥) سبتمانية : منطقة ساحلية تمتد من جبال البرانس غربا الى مصب نهر الرون شرقا . سميت بهذا الاسم لاشتمالها على سبع مدن وعاصمتها مدينة ناربونة . انظر : طرخان : ص ١٠٢ . [المترجم]

الاحتياطات نفسها ضد المسلمين Moors ، الذين كانوا قد بدأوا مؤخراً في أعمال القرصنة • ولهذا فان ايطالية لم تعان الكثير من الأذى في عهده على أيدي المسلمين ، كما أن غالية وألمانية لم تعانيا الكثير من الضرر على أيدي النورمان ، سوى أن المسلمين استطاعوا الاستيلاء على مدينة شيفيتافكية الأتروسكية[1] Civita Vecchia وقاموا بنهبها ، كما قام النورمان بغزو بعض الجزر في فريزية Frisia [2] البعيدة عن ساحل ألمانية •

★ ★ ★

---

(١) مدينة شيفيتافكية مدينة ايطالية ، وهي ميناء بحري في الاقليم الروماني المعروف باللاتيوم ، وتقع على بعد ٦٠ كم الى الغرب والشمال الغربي من مدينة رومة. أسست من قبل تراجان في القرن الاول الميلادي. ومايشير اليه المؤرخ اينهارد هو تلك الحملة البحرية التي قام بها عرب الاندلس عام ٨١٣م على نيس وشيفيتافكية وكورسيكة. وبعد أن نفذت هذه الحملة أهدافها واجهت ، وهي في طريق عودتها الى مواقعها ، ضربة قاسية قرب جزيرة ميورقة على يد اسطول فرنجي قام بمطاردتها ، ونجح في انقاذ حوالي خمسمائة اسيركورسيكي كان قد اسرهم رجالات الحملة . انظر : ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٦٤ .

[المترجم]

(٢) فريزية منطقة تقع في غربي اوستفالية ، بين نهري ايمز والراين ، والاسم الحديث لمنطقة فريزية هو نوترلاندس Netherlands الواقعة في شمال المانية الاتحادية . ونسب الى منطقة فريزية القبائل المعروفة باسم الفريزيين . والمعروف أن هذه القبائل كانت قد شكلت خطراً على الفرنجة ، وكان رؤساء البلاط الفرنجة قد تصدوا للفريزيين ، وبخاصة بيبن هيرستال وشارل مارتل . انظر : طرخان : ص ٢٦ .

[المترجم]

الفصل الثامن عشر

حيـــاة شارلمـــان الخاصـــة

بيّنت في الفصول السابقة كيف دافع شارلمان عن مملكته ووسّعها وجمّلها . ودعوني هنا أعبر عن اعجابي بخصاله العظيمة وثباته الخارق أمام الظروف الحسنة منها والسيئة . ولذا فانني سأبدأ بعرض التفاصيل المتعلقة بحياتـــه الخاصة والعائليـــة .

بعد موت والده (بيبن القصير) تحمل شارلمان ، بصبر مر ، عداء شقيقه (كارلومان) وحسده ، أثناء مشاركته له في حكم المملكة ، وقد أذهل الجميع بصبره وسعة صدره ، فلم تخرجه تصرفات أخيه هذا عن طوره يوما الى درجة الغضب[1] .

وفيما بعد تزوج شارلمان من احدى بنات ديسيدريوس ، ملك اللومبارديين ، استجابة لرغبة والدته ، غير أنه طلقها في نهاية العام الذي تزوجها فيه لسبب غير معروف[2] .

---

(١) عن العلاقة بين شارلمان وكارلومان انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٢) أثناء الصراع غير المعلن بين شارلمان وأخيه كارلومان ، بسبب تقاعس الاخير عن تقديم العون والمساعدة لشارلمان ضد الثورة الاقطانية ، قامت والـــدة شارلمان واسمها برثرادة Berthrada ، بزيارة الى البلاط اللومباردي في بافيـــة بهدف عقـــد تحـــالف ثنائي بـــين ابنها شارلمان والملك اللومباردي ديسيدريوس على أساس المصاهرة . ونجحت برثرادة في الوصول الـــى اتفاق مـــع الاخـــير بأن يتزوج ابنها شارلمان من دسيدراتـــه Desiderata ابنـــة ديسيدريوس وبـــأن تتزوج جيزلـــة Gisela شقيقة شارلمان من =

تزوج شارلمان ، بعد ذلك ، من هلدجارد Hildegard وهي امرأة ذات منشأ نبيـــل ومن أصل سوابي[١] • ورزق منهـــا بثلاثة أولاد هـــم : شارل Charles [٢] وبيبن Pepin [٣] ولويس Louis [٤] ، كما أنجبت له ثلاث بنات

ادالجيس بن ديسيدريوس . وقد احتفل شارلمان بزواجه مــن الاميرة اللومباردية فور وصولها الى بلاطه عام ٧٧١ م ، في حين أبت جيزلة الزواج من الامير اللومباردي ولجأت الى الدير . غير أن شارلمان طلق زوجتــه اللومباردية في العام نفسه (٧٧١ م) ، أما السبب في هذا الطلاق فيعود الى أنها كانت عاقراً لا تنجب أولادا أو أنها كانت مصابة بمرض ما . انظر :
Cam. Med. Hist., 11, PP. 595 - 96 ; Fichtenau, P. 39 .

(١) هلدجارد هي من اقليم سوابية الذي يقع في الجنوب الغربي من المانيــة الاتحادية حاليا . وكانت في الثلاثين من عمرها عند زواجها من شارلمان عام ٧٧١م . وقد أنجبت له ، كما بيّن أينهارد في المتن ، عددا من الاولاد. وقد استمر زواج العاهل الفرنجي بهذه الاميرة السوابية حتى وفاتهـــا عام ٧٨٣ م . ولا نعلم أنه كان لشارلمان خليلات خلال حياتها . انظر :
Fichtenau, PP. 39 - 40 . [المترجم]

(٢) عن شارل بن شارلمان انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٣) لقد دعي بيبن بن شارلمان ، في البداية ، باسم كارلومان . ولكنه اتخذ اسم بيبن عندما تم تعميده في السنة الرابعة من عمره ورسم ملكا علــى ايطالية من قبل البابا هارديان الاول عام ٧٨١ م . وقد توفي بيبن هذا وهو ملك على ايطالية عام ٨١٠ م. انظر الفصل السادس من هذا الكتاب أيضا. انظر : Hyde, P. 39 ; Fichtenau, P. 41 . [المترجم]

(٤) لويس هو المعروف في التاريخ باسم لويس التقي أو لويس الصالح . وهو شق من توأم . والشق الثاني لا يذكره أينهارد وهو لوثير الذي مات طفلا. أما لويس التقي فهو الابن الوحيد لشارلمان الذي ظل على قيد الحياة بعد وفاة والده . وقد عهد شارلمان الى ابنه لويس بحكم اقطانية وتوجه ملكا عليها عام ٧٨١ م . كمـــا قام شارلمان بتتويج ابنـــه لويس هذا امبراطوراً عام ٨١٣ م . انظر : Cam. Med. Hist., 11, PP. 600, 605, 621, 625 .
[المترجم]

هن : هرودرود Hruodrud [1] وبرثة Bertha [2] وجيزلة Gisela . كما رزق ثلاث بنات أخريات هن · ثيودرادة Theoderade [3] وهيلترود Hiltrud [4] ورودهايد Ruodhaid اثنتان منهن من زوجته الثالثة فاسترادة Fastrada ، وهي امرأة من منشأ فرنجي شرقي (أي أنها ذات أصل جرماني)[5] ، أما الابنـة الثالثة فكانت من احدى خليلاته التي يغيب اسمها عن ذاكرتي الآن[6] .

---

(١) هرودرود هي التي خطبت الى الامبراطور البيزنطي قسطنطين السادس (٧٨٠ ــ ٨٠٢) ابن الامبراطورة إيرنـة . وبغض النظر عـن ظـروف وملابسات مشروع المصاهرة هذا ، بين الفرنجة والبيزنطيين، فان المشروع لم يتحقق . ولا ندري هل كان شارلمان نفسه وراء فشل المشروع أم كانت إيرنة ، التي رغبت في ابعاد أي نفوذ فرنجي عن البلاط البيزنطي . انظر تفاصيل هذه المسألة عند :
Vasiliev, 1, P. 267 ; Pirenne, M. and Ch. P. 229 .
[المترجم]

(٢) تزوجت برثة ابنة شارلمان من انجلبرت ، وهو من رجال السياسة والادب في المملكة الفرنجية . وقد ذاع صيت انجلبرت هـذا حتى أطلق عليـه المعاصرون لقب « هومر » . والواقع لم يبق لنا من تراثه غير بعض أشعار ووثائق تتعلق بدير سانت ركوير St. Requier الذي بني ما بين ٧٩٣ ــ ٧٩٨م تحت اشراف انجلبرت نفسه. انظر: عاشور:النهضات ،ص٥٨،٨٤.
[المترجم]

(٣) لقد أصبحت ثيودرادة هذه رئيسة لدير نوتردام قرب باريس . انظر :
Einhard, The Life of Charmag. P. 71 n. 45 .
[المترجم]

(٤) لقد أصبحت هيلترود هذه رئيسة دير فارموتييه Faremoutiers انظر :
Ibid., P.71 n. 46 .
[المترجم]

(٥) فاسترادة هي ابنة رودولف كونت فرانكونية Franconia انظر :
Ibid., P. 71 n. 47 .
[المترجم]

(٦) يرى بعض الباحثين أن الخليلة ، التي غاب اسمها عن أينهارد ، هـي هيميلترود Himiltrud ، وهي والدة بيبن الاحدب ابن شارلمان . انظر :
Ibid., P. 72 n. 48 .
[المترجم]

وعند موت فاسترادة تزوج شارلمان من ليوتجارد Liutgard وهي امرأة ألمانية لم تنجب له أولاداً(١) . واتخذ بعد موتها ثلاث خليلات هن : جيرسوندة Gersuinda ، وهي امرأة سكسونية أنجبت له أدلترود Adaltrud ، والخليلة الثانية رجينة Regina ،وهي والدة كل من دروغو Drogo وهيوغ Hugh (٢) . أما الخليلة الثالثةفهي اثيليند Ethelind التي أنجبت له ثيودوريك Theadoric (٣)

أما والدة شارلمان ، وتدعى برثرادة Berthrada ، فقد أمضت أيام شيخوختها معه ، محاطة بتكريم عظيم . وكان شارلمان يكن لها أسمى آيات الاحترام ، ولم ينشب أي خلاف بينه وبينها اطلاقا الا عند طلاقه لابنة الملك (اللومباردي) ديسيدريوس التي لم يتزوج منها الا ارضاء لوالدته . وقد توفيت والدة شارلمان بعد وفاة هلدجارد مباشرة(٤) وذلك بعد أن عاشت لترى ثلاثة من أحفادها وثلاثا من حفيداتها في بيت ابنها شارلمان . وقد قام شارلمان بدفن أمه ، بموكب مهيب ، في كتدرائية القديس دينس St. Denis ، حيث يرقد والده (بيبن القصير) .

---

(١) كان زواج شارلمان من ليوتجارد عام ٧٩٤ م . وتوفيت هذه الزوجة عام ٨٠٠ م . [المترجم]

(٢) بالنسبة الى دروغو وهيوغ فقد دخلا سلك الرهبنة عام ٨١٨ م ، حيث أصبح دروغو اسقفا لمدينة متس وتوفي في ٨ كانون الاول عام ٨٥٥ م . اما هيوغ فقد أصبح رئيسا لدير القديس كونتن Queentin وتوفي في ١٤حزيران من عام ٨٤٤ م . انظر : Ibid., PP. 71 - 72, n. 50 .

[المترجم]

(٣) ولد ثيودوريك عام ٨١٠ م ، ودخل سلك الرهبنة في نفس الوقت الذي دخل فيه كل من دروغو وهيوغ ، أي عام ٨١٨ م . انظر :
Ibid., P. 72, n. 51.

[المترجم]

(٤) توفيت والدة شارلمان عام ٧٨٣ م أي في العام نفسه الذي توفيت فيه زوجة شارلمان هلدجارد . [المترجم]

وكان لشارلمان أخت وحيدة اسمها جيزلـة Gisela [1] ، وهبت نفسها للحياة الدينية منذ صباها . وكان شارلمان يكن لها حباً كبيراً لا يوازيه سوى حبه لوالدته . وتوفيت جيزلة أيضا قبل وفاة شارلمان ببضع سنوات ، في نفس الدير الذي أمضت فيـه حياتهـا .

★ ★ ★

---

(١) كان لشارلمان ثلاث اخوات ، إلا أن جيزلة هذه ظلت الاخت الوحيدة له . توفيت عام ٨١٠ م في دير شل Chelles الذي يقع قرب باريس . وكانت جيزلة قد رفضت أن تخطب للامير اللومباردي أدالجيس . انظر : الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب ، انظر أيضا :
Einhard., OP. Cit., P. 72 n. 53.

[المترجم]

الفصل التاسع عشر

حيـاة شارلمـان الخاصـة (تتمة)

إن الخطة التي تبناها شارلمان لتربية أبنائه كانت ترمي بالدرجة الاولى الى تعليم ، البنين منهم والبنات ، الفنون الحرة Liberal Arts (1) التي كانت أيضا موضع الاهتمام الشخصي لشارلمان • فقد كان على الذكور من أبنـاء شارلمان ـ وفقا لعرف الفرنجة ـ تعلم الفروسية والتدرب على فن الحـرب ورياضة الصيد ، وذلك حالما يسمح لهم سنهم بذلك ، في حين كان على البنات أن يعوّدن أنفسهن القيام بأعمال الخياطة والحياكة واستعمال المغزل ، وذلك لكي لا يألفن الخمول وحياة البطالة ، كما غذى فيهن كل احساس بالفضيلة •

وفقد شارلمان قبل وفاته ثلاثة فقط من كل أبنائه ، اثنين مـن البنـين وواحدة من البنات • أما الولدان اللذان فقدهما فهما : شارل ، وهو ابنـه البكر(2) ، وبيبن(3) ، الذي كان قد نصبه ملكا على ايطالية • وأما الابنة فهي

---

(1) الفنون الحرة هي سبعة ، وتنقسم الى مجموعتين : المجموعة الثلاثيـة وتشمل : النحو والبلاغة المنطق ، والمجموعة الرباعية وتشمل : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وكان الاساتذة يرجعون في تعليم هـذه العلوم الى مؤلفات الآباء مثل : بيد ، وايزيدور، وكاسيودور، وشيشرون، وبريسيان ، ودونات ، وغيرهم . انظر : كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ، ج1 ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ، عاشور ، المدنية الاسلامية : ص ٣٨ ، حاطوم : ص ٢٨١ ، أيضا : Painter, P. 460 . [المترجم]

(2) عن شارل ابن الملك شارلمان انظر : الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب . [المترجم]

(3) عن بيبن ابن الملك شارلمان انظر : الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب .

هرودرود[1] ، كبرى بناته ، وهي التي كان قد خطبها الى الامبراطور اليوناني قسطنطين[2] . وكان بيبن المتوفي هذا قد خلف ابناً واحداً ، سمي برنارد Bernard [3] ، كما خلف خمس بنات هن : أدلياد Adelaide ، واتولة Atula وجوترادة Guntrada وبيرثياد Berthaid ، وثيودرادة Theoderada . ولقد أظهر موت بيبن دليلا رائعا على عاطفة شارلمان الابوية ، فقد جعل حفيده (برنارد) خلفاً لوالده ، كما قام بتربية حفيداته جنبا الى جنب مع بناته .

لقد عرف شارلمان برجاحة العقل ، وتميز بالصبر وهدوء النفس ، على أن ذلك كله لم يستطع أن يغلب عواطفه الجياشة ، فقد أخرجه الحزن عن هدوئه وأبكاه مرتين ، بكى عندما فقد ولديه وابنته ، وبكى عندما أخبر بموت الحبر الروماني هارديان[4] الذي أحبه كما لم يحب أحداً من أصدقائه ، وأحس بأنه فقد بفقده أخاً عزيزاً أو ابناً أثيراً .

---

(١) عن هرودرود ابنة الملك شارلمان انظر:الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٢) هو قسطنطين السادس (٧٨٠ ـ ٨٠٢ م) انظر تفصيل ذلك في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٣) بعد وفاة بيبن بن شارلمان عام ٨١٠ م صار يحكم ايطالية مبعوثون من قبل الامبراطور شارلمان . وفي عام ٨١٢ م تولى برنارد بن بيبن حكم ايطالية خلفا لوالده وذلك بناء على أمر شارلمان . ولكن عندما اعتلى لويس التقي العرش الامبراطوري بعد وفاة والده أمر بسمل عيني ابن أخيه برنارد ، وتوفي الاخير نتيجة ذلك عام ٨١٧ م . انظر : ديفز : ص ٢٢٧ ، أيضا : Cam. Med. Hist., 11, P. 625 .
[المترجم]

(٤) هو البابا هارديان الاول (٧٧٢ ـ ٧٩٥ م). عن العلاقة بينه وبين شارلمان انظر : الفصل السادس من هذا الكتاب .
[المترجم]

كان (شارلمان) بطبعه ميالا لاقامة علاقات الصداقة ، حريصا على أواصر الود مع الآخرين ، يكسب الاصدقاء بسهولة ويسر ، ويرعى هذه الصداقة ويلتزمها ، ويضن بها ، ويظهر محبته الاكيدة لهؤلاء الاصدقاء .

وكان حريصا أشد الحرص على الاهتمام بأبنائه وبناته وحسن توجيههم، فان كان في المنزل شاركوه طعامه ، وان قام برحلة كانوا معه ، فيركب أبناؤه الذكور الى جانبه ، وكانت بناته يتبعنه في آخر موكبه وقد أحاط بهن عدد من حراسه المكلفين بحراستهن .

ومن أشد الأمور غرابة أن بنات شارلمان كنّ في غاية الجمال ، وان شارلمان أحبهن حباً جماً ، غير أنه لم يجز لهن أن يتزوجن اطلاقا من أي انسان تقدم لخطبتهن ، سواء من بني قومهم أو من أجنبي ، وبلغ من شدة تعلقه ببناته أنه استبقاهن جميعا في البيت حتى موته مدعيا بأنه لا يطيق فراقهن(١) .

كان شارلمان سعيداً بما أراد لبناته من البقاء حوله ، وتحمّل ما جرت به

---

(١) يبدو أن عدم سماح شارلمان لبناته بالزواج له علاقة بالسياسة ، وذلك لأن مشروعات الزواج التي وافق عليها املتها ظروف سياسية معينة ، وعندما لم تتحقق أو لم يكن بالامكان تحقيق النتائج السياسية لمشروعات المصاهرة كان ينهار مشروع الزواج برمته . ومن ناحية أخرى فان شارلمان لم يكن يرغب في تفتيت أراضي امبراطوريته بتوزيع بعض الاراضي على الاحفاد الذين قد تنجبهن بناته لعائلات غريبة عن البيت الفرنجي المالك إن هن تزوجن . هذا مع أن شارلمان كان يعلل موقفه هذا بقوله بأنه لا يطيق فراق بناته . انظر : اسحق عبيد : ص ٢٢٤ .

[المترجم]

الاقدار في شأنهن ، وتغاضى عن كل الشائعات الدائرة حولهن ، ولم يلتفت الى كل الشكوك التي أحاطت بشرفهن[1] .

★ ★ ★

(١) من المعروف أن بنات شارلمان قد وجدن متنفسا في قصره الفاص بالوجهاء من رجال الدين والدنيا بأن اقمن علاقات حب مع بعضهم ، الامر الذي فاحت رائحته ، وكان سببا في بعض المتاعب التي كان على العاهل الفرنجي أن يعالجها في كياسة فائقة حرصا على سمعة البيت الكارولنجي المالك . وبعد وفاة شارلمان واعتلاء ابنه لويس التقي العرش الامبراطوري شرع الاخير في اصلاح البلاط ، ووجد صعوبة كبيرة في استئصال الرذائل البالغة السوء التي انتشرت في عهد والده . وكانت أولى الخطوات التي اتخذها لويس في هذا السبيل هي انه ارسل كل اخواته الى الدير عدا هرودرود التي انفردت باكتساب حب المفكر الانجليزي الكوين بأن انصرفت الى اللاهوت انظر : Fichtenau, P. 42 . انظر أيضا :
ديفز : ص ٢١٤ ، اسحق عبيد : ص ٢٤ .

الفصل العشرون

المؤمرات ضد شارلمان

كان شارلمان قد رزق ابناً من احدى خليلاته سماه بيبن(١) وكان هـذا الابن جميل الوجه غير أنه كان أحدب ، وكنت قد أغفلت ذكره في قائمة أبناء شارلمان ، وفي الوقت الذي كان فيه شارلمان يحارب الهون(٢) ، ويمضي فصل الشتاء في بافارية ، تمارض بيبن وتآمر ضد والده بالتعاون مع بعض الفرنجة البارزين الذين قاموا بالتأثير فيه واغرائه بالوعود الجوفاء بالسلطة الملكية ، وعندما اكتشف شارلمان خداعه عاقب المتآمرين وأمر بحلق شعر رأس ابنـه وسمح له ، بناء على رغبته ، بنذر نفسه للحياة الدينية في دير بروم(٣) .

---

(١) يبدو أن اسم هذه الخليلة هو هيميلترود . انظر الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب . [المترجم]

(٢) عن الهون انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب . [المترجم]

(٣) تشير المراجع الى أن السبب الذي دفع بيبن الاحدب للاشتراك في المؤمرة ضد والده شارلمان عام ٧٩٢م هو تحول عواطف الاخير نحو ابنائه الاخرين، وشعر بيبن بهذا التمييز الذي يمارسه والده بينه وبين أخوته . ولهـذا فقد شارك القادة الفرنجة المناوئين لوالده ، غير أن أحد الافراد المشتركين في المؤامرة ابلغ شارلمان ، قبل تنفيذ الخطة ، بتفاصيلها وأسماء قادتها . وقام شارلمان ، عندئذ ، بالقبض على ابنه بيبن الاحدب وزجه في دير بروم سجيناً . وقد ظل بيبن في هذا الدير حتى وفاته عام ٨١١ م . اما الرجل الذي كشف المؤامرة فقد اكرمه شارلمان ايما اكرام حيث عينه رئيسا لدير القديس دينس . انظر : Fichtenau, PP. 41, 82.

[المترجم]

كما أن مؤامرة رهيبة أخرى كانت قد حبكت قبل ذلك في ألمانية ضد شارلمان ، غير أنها كشفت ونفي الخونة جميعا عن البلاد الى جهات نائية بالمملكة ، بعد أن سملت عيون فئة منهم ، وكان حظ آخرين حسنا فذهبوا الى منفاهم سالمين . ولقد قتل ثلاثة فقط من هؤلاء الخونة استلوا سيوفهم في محاولة فاشلة لمقاومة اعتقالهم ، وقتلوا عدداً من الرجال ، ولم يكن بالامكان التغلب عليهم الا بالقضاء عليهم[1] .

ويعتقد بأن وحشية الملكة فاسترادة Fastrada كانت السبب الاول لهاتين المؤامرتين ، وكلتاهما كانتا نتيجة لتغاضي شارلمان الواضح عن سلوك زوجته الوحشي ، وعن خروجها على قواعد اللباقة والكياسة المعتادتين بالنسبة الى شخصه[2] ، وكان الجميع ينظرون اليه ، طوال الفترة المتبقية من حياته، نظرة ملؤها الحب والتقدير،فما من أحد وجّه اليه أي اتهام حول أي تصرف مجحف بحق أي انسان .

★ ★ ★

---

(١) يبدو أن المؤمرة الثانية هذه كانت عام ٧٨٥ — ٧٨٦ م .
[المترجم]

(٢) لا شك في أن الكشف عن دور الملكة فاسترادة ، زوجة شارلمان ، في هذه المؤامرة مسألة مقصودة من المؤرخ اينهارد . ويرى أحد الباحثين المحدثين أن اينهارد استهدف من إبراز دور الملكة تحذير سيده الملك لويس التقي من التأثير الشرير الذي تمارسه زوجته الملكة جوديث Judith عليه ، وما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج . انظر : Fichtenau, P. 40 .
[المترجم]

الفصل الحادي والعشرون

معاملـة شارلمـان للأجـانب

لقد أحب (شارلمان) الأجانب ، وبذل جهوداً كبيرة لتأمين الحماية لهم ، وغالباً ما كانت مملكته مرتعا لأعداد كبيرة منهم ، في القصر وفي أرجاء المملكة. وكانوا أحيانا مصدراً للشغب . غير أن شارلمان ، باحساسه الانساني المتدفق قلما كان يغضب لهذه الظواهر ، بل كان يشعر بالارتياح لأن هؤلاء كانوا يعوضون ذلك بالمديح الذي كانوا يكيلونه له ، مشيدين بكرمه ورفعة شأنه .

★ ★ ★

الفصل الثاني والعشرون

المظهر الشخصي لشارلمان

كان شارلمان ضخم الجسم ، قوي البنية ، طويل القامة ، وكان طوله متناسقا مع بقية جسمه (من المعروف أن طوله يبلغ سبعة أمثال طول قدمه) • وكان القسم الاعلى من رأسه مستديراً ، وكانت عيناه واسعتين تفيضان حيوية، وكان أنفه مائلا الى الطول ، وشعره أشقر ، ووجهه مشرق المحيا • ولهذا فقد كان مظهره يدل على الهيبة والوقار عليا لدوام ، سواء أكان واقفاً أم جالساً • وعلى الرغم من أن رقبته كانت ثخينة وقصيرة بعض الشيء ، وبطنه كان بارزاً الى حد ما ، غير أن التناسق في بقية أجزاء جسمه قد أخفى تلك العيوب •

وكان (شارلمان) واثق الخطوة مهيباً ذا صوت جلي، غير أن هذا الصوت لم يكن قويا كما هو متوقع من رجل في مثل بنيته • وكانت صحته ممتازة خلا السنوات الأربع التي سبقت موته ، حيث أصيب بنوبة حمى متكررة ، كما أنه أخذ ، في النهاية ، يعاني من عرج خفيف في احدى قدميه •

وعمل شارلمان خلال السنوات (الاربع) هذه وفقا لميوله ولم يأبه لنصيحة الاطباء الذين كانوا يكرهون تصرفاته لأنهم أرادوه على التخلي عن تناول اللحوم المشوية ــ التي كان قد اعتاد تناولها ــ وأن يستبدل بها اللحوم المسلوقة ، فلم يستمع لنصحهم •

وكان (شارلمان) يقوم دائما بالتدرب المستمر على ركوب الخيل والصيد، تمشيا مع التقاليد القومية ، وهذه مآثر يندر أن يكون بين البشر من يضاهي الفرنجة بها • وكان يستمتع بأبخرة الينابيع الطبيعية الدافئة ، وغالبا ما كان

يمارس السباحة ، بل انه كان يجيدها ، فلا يستطيع أحد أن يبزه فيها • ولهذا الأمر بالذات يعود قيامه ببناء قصره في اكس لا شابيل[1] حيث عاش هناك ، بشكل دائم ، خلال السنوات الاخيرة من حياته وحتى وفاته[2] •

ولم يتعود (شارلمان) دعوة أولاده وحدهم لحمامه ، وانما كان يدعو النبلاء وأصدقاءه أيضا • كما كان يدعو بين الحين والآخر مجموعة من حاشيته وحتى من حراسه • ولهذا فقد كان يستحم مع شارلمان ، في بعض الاحيان ، حوالي مئة شخص أو أكثر •

★ ★ ★

(١) عن اكس لا شابيل انظر الفصل السابع عشر من هذا الكتاب •
[المترجم]

(٢) كانت وفاة شارلمان في ٢٨ كانون الثاني من عام ٨١٤ م •
[المترجم]

الفصل الثالث والعشرون

ملابس شارلمان

اعتاد شارلمان ارتداء اللباس الوطني ، أي الفرنجي ، فكانت ثيابه تتألف من قميص وسروال من الكتان ، يرتدي فوقهما جلبابا من الصوف ذا أهداب من الحرير ، وجوربين طويلين مربوطين بشريطين ، يستران ساقيه ، وحذاء يكسو قدميه •

وكان يحمي كتفيه وصدره في الشتاء بمعطف محبوك على مقدار جسمه، مصنوع من جلود القضاعة أو الدلَّق وكان يلقي فوق هذه الملابس كلها عباءة زرقاء • واعتاد دائما أن يضع نطاقا يحمل فيه سيفا ذا قبضة ذهبية أو فضية ، بل كان يحمل أحيانا سيفا مرصعا بالجواهر ، وبخاصة في أيام الاعياد الكبيرة أو عندما يقوم باستقبال سفراء الدول الاجنبية •

وكان شارلمان يزدري الملابس الاجنبية مهما كانت جميلة ، ولم يسمح لنفسه بارتداء ثوب منها الا مرتين في رومة ، حيث ارتضى أن يرتدي العباءة الرومانية والسترة الطويلة (الكلامس) والخف الروماني • المرة الاولى كانت تلبية لطلب البابا هادريان[1] ، والمرة الاخرى كانت لارضاء البابا ليو خليفة

---

(١) يبدو أن ذلك حدث أثناء الحملة التي قام بها شارلمان ضد المملكة اللومباردية في ايطالية (٧٧٣ ــ ٧٧٤ م) فأثناء حصار العاصمة اللومباردية بافية (عام ٧٧٤م) قام شارلمان بزيارة البابا هادريان (٧٧٢ ــ ٧٩٥م) في رومة . وقد رحب به البابا ترحيبا عظيما . انظر : Fichtenau, P. 21 .

[المترجم]

هارديان[1] .

أما في أيام الاعياد الكبيرة فقد استخدم (شارلمـان) الثياب المطرزة ، والاحذية المزينة بالاحجار الكريمة . أما عباءته فقد كانت ذات حلية ذهبيـة . وقد ظهر شارلمان متوجاً بأكليل من الذهب واللآلىء . أما في الايام الاخرى فكانت ملابسه مختلفة بعض الاختلاف عن الملابس العادية التي يرتديها الشعب .

★ ★ ★

(١) يقصد المؤرخ ارتداء شارلمان للعباءة الامبراطورية اثناء تتويجه امبراطوراً على يد البابا ليو الثالث (٧٩٥ ــ ٨١٦ م) في كنيسة القديس بطرس في رومة يوم عيد الميلاد (في ٢٥ كانون الاول من عام ٨٠٠ م) . انظر تفصيل ذلك في الفصل الثامن والعشرين من هذا الكتاب .

[المترجم]

الفصل الرابع والعشرون

عــادات شارلمــان

كان شارلمان معتدلا في تناول الطعام بشكل عام ، وباحتساء الشراب بشكل خاص ، ذلك أنه كان يمقت السكر في أي فرد ، وأكثر ما يمقته في نفسه أو في أحد أفراد بيته • ولكن لم يكن من السهل عليه كبح جماح رغبتــه في الطعام ، حتى انه كان يشتكي دائما من أن الصيام يضر بصحته ، وكان نادراً ما يقيم حفلات الا في الاعياد الكبرى ، والتي كان يدعو اليها أعداداً غفيرة من الناس •

وكانت وجبات الطعام التي يتناولها (شارلمان) تتألف عادة من أربعــة أصناف ، بالاضافة الى اللحم المشوي الذي كان يعده له الصائدون ساخنا ، وكان يؤثر هذا النوع على سائر أنواع الطعام •

وكــان (شارلمان) يستمع ، أثنــاء الطعام ، الى شيء مــن القراءة أو الموسيقى • وكانت موضوعات هذه القراءات قصصا ومآثر الزمن الغابر ، فقد كان مولعا بكتب القديس أوغسطين[1] Augustine ولا سيما الكتاب المعروف

(١) ولد القديس أوغسطــين St. Augustine من أبوين رومانيين عام ٣٥٤ م في تاجستة شرقي نوميدية (أي شرقي الجزائر حاليا) . وكان أبوه وثنيا في حين كانت أمه مسيحية. سافر الى قرطاجة عام ٣٧١ م ليتعلم الخطابة، كما تعلم البلاغة في كل من قرطاجة وروما وميلانو. تأثر أوغسطين بالمبادىء الافلاطونية التي اطلع عليها في بعض كتابات شيشرون وأفلوطين . كما كان على دراية واسعة بآداب اللاتين القدامى وبالفلسفة الاغريقية . وفي عــام ٣٨٦م اعتنق أوغسطين المسيحية على يد القديس امبروز St. Ambroise

باسم « مدينة الله » The City of God [1] .

وبلغ من شدة اعتدال شارلمان في تناول الخمر وسائر أنواع المشروبات أنه قلما سمح لنفسه بتناول أكثر من ثلاثة أقداح أثناء وجبة الطعام .

(٣٤٠ – ٣٩٨ م) . وفي عام ٣٩٥ م أصبح اوغسطين زعيم الكنيسة الكاثوليكية في شمال افريقية ، وهو يعتبر من أعظم آباء الكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى المبكرة . وقد خلف مؤلفات عديدة تركت أثرها على العقلية الوسيطة، ومن أهمها كتابه « مدينة الله »،وكتاب « الاعترافات » Confessions التي تعتبر اول ترجمة يدونها شخص عن نفسه في تاريخ الآداب قاطبة . توفي عام ٤٣٠ م . انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ، ص ٢٣ – ٥٧ ، عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى ، ص ١٦ – ٣٩ دولي : حضارة روما ، ص ٣٨٨ وما بعدها .
[المترجم]

(١) الف أوغسطين كتابه « مدينة الله » De Civitate Dei ما بين عام ٤١٣ م وعام ٤٢٦ م ، باللغة اللاتينية . ويعتبر هذا الكتاب اعظم ما خلفه آباء الكنيسة . وكان السبب في تأليفه هو تلك الصدمة التي هزت العالم الروماني عندما سقطت رومة تحت اقدام الزعيم الجرماني آلاريك عام ٤١٠ م . حيث اعتقد الناس أن سقوط هذه المدينة يعني اقتراب نهاية العالم ، وراح الوثنيون يروجون أن سقوط رومة ليس إلا انتقاما للوثنية ومعابدها القديمة ، وأن المسيحية هي المسؤولة عما حل بالمدينة وان « الآلهة القدامى للرومان قد أهينت من قبل إله المسيحيين » . ولذلك تصدى اوغسطين للرد على هذه الاتهامات وتلك المغالطات في كتابه « مدينة الله » الذي يعتبر بمثابة فلسفة للدفاع عن المسيحية ، حيث قال : « ان سقوط رومة هو مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة » ، وبين اوغسطين أن رومة قد هوت صريعة الشرك والمظالم التي اشاعتها الحضارة الوثنية على مر التاريخ ، واشار الى « أن رومة الخاطئة سقطت لتمهد السبيل لانتصار مدينة الله » . وكان كتاب « مدينة الله » أكثر الكتب انتشاراً، بعد الكتاب المقدس، في أوربة في العصور الوسطى . انظر تفصيل ذلك : كرامب وجاكوب ج ٢ ، ص ٧١٦ ، بدوي : ص ١٦ – ٣٩ ، كرم : ص ٢٣–٥٧، دولي : ص ٣٨٨ . [المترجم]

وفي فصل الصيف اعتاد (شارلمان) أن يتناول بعد وجبة الغداء شيئا من الفاكهة واحتساء قدح من الشراب ، ثم يخلع ملابسه وحذاءه ، كما يفعل تماما في الليل ، حيث يستريح مدة ساعتين أو ثلاث ساعات • وقد اعتاد الاستيقاظ والنهوض من سريره أربع مرات أو خمس مرات خلال الليل •

وكـان (شارلمـان) يسمح لأصدقائه بالحضور عنـده وهو يرتدي ثيابه وحذاءه ، بل كان يسمح كذلك للمتخاصمين بالمثول أمامه ، اذا رفع اليه كونت القصر قضية تقتضي منه سرعة البت فيها ، فكان يسمع القضية ويعطي الحكم كما لو كان جالسا في سدة القضاء • ولم يكن ذلك هو العمل الوحيد الذي كان يقوم به في ذلك الوقت ، بل كان يؤدي أيضا أي واجب من واجباته اليومية ، سواء كان عليه أن يحضر لحل المشكلة شخصيا أو عن طريق اصدار أوامره المتعلقة بهذه المشكلة الى موظفيه •

★ ★ ★

الفصل الخامس والعشرون

دراسات شارلمان

تميز شارلمان بسرعة البديهة وطلاقة الحديث ، وكان قادراً على أن يعبر بوضوح تام عن كل ما يريد أن يقول . ولم يكتف بقدرته الفائقة في أداء ما يجب بلغته القومية[1] فحسب وانما اهتم بدراسة اللغات الاجنبية ، وبلغ من اتقانه اللاتينية مثلا أن صار يتحدث بها كما يتحدث بلغته القومية . الا أن فهمه لليونانية كان يفوق قدرته على التحدث بها . ومن الحق القول : إن شارلمان كان فصيحا ، بل كان قدوة وأستاذاً في الفصاحة .

لقد رعى (شارلمان) بحماسة بالغة الفنون الحرة[2] ، فخص أولئك الذين يعلمونها بقدر كبير من الاحترام ، وأنعم عليهم بكثير من التقدير[3] .

---

(١) على الرغم من أن اللغة اللاتينية ظلت هي اللغة الرسمية المستخدمة في ميدان الادب والادارة الحكومية في عصر شارلمان ، الا أن الاخير لم يتخل عن لغته القومية ، وهي اللغة الفرنجية ، لغة أجداده الاوائل من الفرنجة . واللغة الفرنجية هي احدى اللغات الجرمانية المشتقة من اصل هندو أوربي ، وهي بالاصل لهجة جرمانية اختلطت باللاتينية . [المترجم]

(٢) عن الفنون الحرة انظر الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٣) ان سياسة شارلمان في المجالات الثقافية ، وما أدت اليه من نشاط أدبي وغيره ، جعلت بعض المؤرخين ، فيما بعد ، يطلقون على هذا النشاط اسم « النهضة الكارولنجية » . غير أن هذه النهضة تميزت بأنها كانت نهضة مصطنعة ولم تنبع من عوامل حضارية كامنة وانما ولدت في بلاط شارلمان=

تلقـى (شارلمان) دروسه في النحو على يـد الشماس بطرس البيزاوي Peter of Pisa [1] ، الذي كان في ذلك الوقت رجلا طاعنا في السن • غير أن معلم شارلمان في الفروع الاخرى من المعرفة كان شماسا آخـر اسمه البـين البريطاني Albin of Britain الملقب باسم ألكوين Alcuin [2] ، وهو رجـل متحدر من أصل سكسوني وكان من أعظم علماء عصره •

= وخمدت جذوتها بالسرعة التي ظهرت بها . كما ان هذه النهضة كانت ضيقة الافق قصيرة العمر لأنها ارتبطت في مولدها ونشأتها برجل واحد يتعهدها ويرعاها وزالت مع زواله وزوال أقطابها . كما كانت النهضة الكارولنجية حركة احياء اكثر منها حركة ابتكار وتجديد وذلك لأنها خلت من الابداع والاصالة وطغى عليها النقل والتقليد . وعلى أية حال فقد عملت هـذه النهضة على احياء الدراسات اللاتينية ورفع مستوى اللغة اللاتينيـة ، وبالتالي فقد كانت اساسا للنهضة الاوربية في القرن الثاني عشر وإرهاصا للنهضة الاوربية في العصور الحديثة . انظر طبيعة النهضة الاوربيـة ومميزاتها عند موس : ص ٣٦٦ ، عاشور : النهضات ، ص ٤٠ — ٤١ ، أيضا : Pirenne, M. and Ch. PP. 278 - 81 ; [المترجم]

(١) عندما استولى شارلمان على بافية عاصمة اللومبارديين (عام ٧٧٤ م) وجد فيها بطرس البيزاوي فأتى به الى غالية . وعلى الرغم من اننا لا نعرف العمل الذي عهد به شارلمان الى بطرس إلا اننا نعرف أن الاخـير كـان متخصصا في نحو اللغة اللاتينية ، وأن شارلمان تعلم على يديه قواعد هذه اللغة . وكان بطرس مساعداً ثمينا للملك شارلمان في مدرسة القصر . مات بطرس البيزاوي عام ٧٩٩ م . انظر تفصيل ذلك عند : موس : ص ٣٦٥ ، عاشور : النهضات : ص ١٤٢ ، حاطوم : ص ٢٨٢ ، Painter, P. 81 ; [المترجم]

(٢) كان الكوين الانجليزي (٧٣٥ — ٨٠٤ م) في مقدمة العلماء الذين جنّدهم شارلمان . ولد الكوين في مدينة يورك عام ٧٣٥ م وتلقى تعليمه فيها حيث درس كتابات آباء الكنيسة والعلوم الكلاسيكية ، ثم أصبح رئيسا لدير المدينة . استقدم شارلمان الكوين من انجلترة الى بلاطه في اكس لا شابيل =

وكان الملك (شارلمان) يقضي شطراً كبيراً من الوقت والجهد مع ألكوين في دراسة علم البلاغة والجدل وعلم الفلك بصفة خاصة ، كما تعلم الحساب واعتاد أن يستعمله في حساب حركات الاجرام السماوية بفضول كبير وبدقة فائقـــة (١) .

= عام٧٨٢م لكي يشرف على الحركة العلمية فيالمملكة الفرنجية ويطورها . ومع أن الكوين لم يشغل وظيفة رسمية في بلاط شارلمان الا أن الاخير غمره بالضياع الوفيرة . قام الكوين بالتدريس في مدرسة القصر وادارتها ووضع لها المناهج والنظم ، واسس عدداً من المدارس الديرية في المملكة ووضع لها النظم والمناهج . ألف الكوين عدداً من الكتب المدرسية في النحو والبلاغة واللاهوت ، كما راجع الكتاب المقدس ومجموعة كتب الصلوات . لقد كان الكوين بمثابة المستشار الاول لشارلمانفيكافة الشؤون السياسيةوالعلمية. في عام ٧٨٦ انسحب الكوين الى دير القديس مارتن بي مدينة تور ، حيث ظل رئيسا لهذا الدير حتى وفاته عام ٨٠٤ م . انظر تفاصيل أكثر عـن الكوين عند : كانتور: ص٣٠٨، ٣١٨ ــ ٣١٩، هاسكنس: نشأة الجامعات، ص ٣١٠ ، دوسن : ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧ ، جوزيف نسيم : أوربا ، ص ١٥٩، ٣٠٢ ــ ٣٠٤ ، أيضا :
Keen, P. 66 ; Fichtenau, PP. 29 - 30 ; Pirenne, M. and Ch. P. 278.

(١) لا ندري لماذا يغفل أينهارد ذكر عدد من الاقطاب الذين عاشوا في بـلاط شارلمان ولعبوا دوراً هاماً في النهضة العلمية في غالية ، من أمثال المؤرخ المشهور بولس الشماس (٧٢٥ ــ ٧٩٧ م) ، اللومباردي الاصل ، والذي دعاه شارلمان ، بعد سقوط المملكة اللومباردية ليفيد مدرسة القصر بعلمه في ميدان التاريخ والنحو . وفي أواخر سني حياته . اتجه بولس الى دير مونت كاسينو ، حيث عكف على تأليف كتابه المشهور:«تاريخ اللومبارديين» كما أغفل أينهارد ذكن الشاعر الأسباني ثيودولف ، القوطي الغربي الاصل، والذي استدعاه شارلمان من اسبانية الى بلاطه ، ويعتبر ثيودولف مـن أرقى شعراء عصره ، وقام ، الى جانب مهمته التعليمية ، سفيراً ملكيـاً وعينه شارلمان اسقفا على أورليان . انظر : دوسن : ص ٢٧٦ ، عاشور : النهضات ، ص ٤٢ ــ ٤٣ ، اسحق عبيد : ص ٢٢٧ ، جوزيف : أوربا ، ص ٣٠٤ ، ٣٣٩ ، . Painter, P. 81 [المترجم]

وحاول شارلمان ، أيضا ، تعلم الكتابة ، ولهذا الغرض اعتاد أن يحتفظ بألواح الكتابة والقراطيس في السرير تحت وسادته ، وذلك لكي يدرب يده ، في أوقات الفراغ ، على رسم الحروف . غير أن شارلمان — على أية حال — لم يبدأ ببذل جهوده هذه في السن المناسب ، وانما في وقت متقدم من حياتــه ، ولهذا فقد كان لهذه الجهود نجاح ضئيل[1] .

★ ★ ★

(١) ان حديث أينهارد هذا يعتبر دليلا قاطعا على الفروق الحضارية بين الغرب والشرق في العصور الوسطى . ففي الوقت الذي كانت فيه بغداد ودمشق والقاهرة ، وغيرها من المدن العربية ، تشكل مراكز ثقافية عالمية في شتى مناحي المعرفة الانسانية ، وفي الوقت الذي تقاطر فيه الى بغداد ، في عهد الرشيد ، رجال الفن والادب من جميع الملل والنحل ، حيث كان يتناقش هؤلاء في القضايا الفلسفية ويطلعون ويترجمون المؤلفات الفلسفية اليونانية والفارسية والهندية ، في ذلك الوقت كان شارلمان ورجال بلاطــه ونبلاء مملكته ، كما يشهد المؤرخ أينهارد بذلك، يحاولون أن يتعلموا كيف يكتبون أسماءهم . أيضا انظر : لوبون : ص ٢١٤ .

[المترجم]

الفصل السادس والعشرون

تقـوى شارلمـان

لقد تمسك شارلمان ـ بكثير من الحماسة والورع ـ بمبادىء الديانة المسيحية التي شب عليها منذ طفولته ، ولذا فقد شيد في اكس لا شابيل كنيسة جميلة، وزينها بالذهب والفضة والقناديل ، وجعل لها سياجا وأبوابا من البرونز الخالص . وكان شارلمان قد جلب الاعمدة والرخام اللازمين لهذا البناء مـن مدينتي روما ورافنة،لأنه لم يستطع أن يجد مثيلا ملائما في أي مكان آخر[1] .

وحرص شارلمان على مواظبة الصلاة في هذه الكنيسة بصورة دائمـة ما دامت صحته تسمح له بذلك ، حيث كان يمضي اليها صباحا ومساء ، وحتى أثناء الليل ، هذا فضلا عن حضوره أوقات القداس .

كما عنى شارلمان عناية بالغة بأن تؤدى كل الطقوس الدينية ، التي تجري في الكنيسة ، بأسمى درجات الورع الممكنة،ودأب على تحذير حراس الكنيسة على ألا يسمحوا بأن يدخل اليها أو يبقى فيها كل ما يدنسها أو يفسد نظافتها .

وزود شارلمان الكنيسة بمقادير ضخمة من الأواني المقدسة المصنوعة من الذهب والفضة ، وبكمية كبيرة من الأردية الكهنوتية ، تفي بحاجة المصلين ؛ حتى أن حراس الابواب ـ الذين كانوا يشغلون أدنى منصب في الكنيسة ـ كانوا مجبرين على ارتداء هذه الأردية عندما كانوا يؤدون واجباتهم .

---

(١) عن كنيسة اكس لا شابيل انظر الفصل السابع عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

كما وجه شارلمان عناية كبيرة الى تحسين التلاوة والترتيل[1] في الكنيسة، لأنه كان بارعا في كليهما، مع أنه لم يمارس التلاوة أو الترتيل جهاراً، الا بصوت منخفض وسط حشد المصلين •

★ ★ ★

(١) من المعروف ان الملوك الكارولنجيين اهتموا بتحسين نظام الكنيسة. وتشير المراجع الى ان شارلمان جلب ، عام ٧٨٦ م ، مرتلين من رومة ليصلح بهم صلوات الكنيسة ، واقامهم في ميتس وسواسون ، وبعث اليهم المرتلين من مختلف كنائس مملكته ليتعلموا عليهم . انظر : كانتور : ص ٣١٥ ، ديفز : ص ١٥٦ . [المترجم]

الفصل السابع والعشرون

كَرَم شارلمان

لقد كان شارلمان شديد الرغبة في مساعدة الفقراء ، وفي تقديم الهبات ، التي يسميها اليونانيون[1] الصدقات ، للمحتاجين . لم يقتصر عطاؤه للفقراء على أبناء بلده أو مملكته فحسب ، وانما اعتاد أن يبعث الأموال الى ما وراء البحار ، الى سورية ومصر وأفريقية وبيت المقدس والاسكندرية وقرطاجة ، لمساعدة الفقراء المسيحيين الذين سمع بسوء أحوالهم في تلك البلاد[2] .

ولعل السبب الذي جعل شارلمان يحرص حرصا شديداً على اقامة العلاقات الودية مع ملوك ما وراء البحار هو أنه كان يرجو حسن معاملتهم

---

(١) يقصد اينهارد باليونانيين رعايا الامبراطورية الرومانية الشرقية ، أي الامبراطورية البيزنطية . [المترجم]

(٢) يقع المؤرخ اينهارد ، في هذه المسالة ، بأخطاء تاريخية ويطلق احكاما غير دقيقة ، ذلك أن الاحوال الاقتصادية للمسيحيين العرب في ظل الخلافة العباسية كانت هي نفسها أحوال العرب المسلمين ، بل ربما كانت افضل في بعض المجالات ، فيقول أرنولد ،في هذا الصدد ، ان المسيحيين كانوا في العصر العباسي يجمعون أموالا وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة . حتى أن هذه الثروة أثارت طمع الدهماء بهم . كما أن الطبيب الخاص للخليفة هارون الرشيد ، وهو طبيب مسيحي نسطوري ، اسمه جبريل، قد بلغ ايراده السنوي ٨٠٠٫٠٠٠ درهم من أملاكه الخاصة ، فضلا عن راتب قدره ٢٨٠٫٠٠٠ درهم ، في السنة ، مقابل عنايته بمعالجة الخليفة. انظر : أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٨٣ .
[المترجم]

لرعاياهم المسيحيين الذين يعيشون في ظل حكمهم(١) .

لقد فاق اهتمام شارلمان بكنيسة القديس بطرس الرسول في رومة(٢) اهتمامه بكل الاماكن المعظمة والمقدسة الاخرى ، فقد غمر خزائنها بمقادير ضخمة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة . وأرسل الى البابوات بهدايا قيمة لا حصر لها . والأمنية التي كانت تستميله وتملأ قلبه ــ خلال عهده كله ــ هي اعادة المجد القديم لمدينة رومة تحت رعايته وبسلطانه ، والدفاع عن كنيسة القديس بطرس وحمايتها وتزيينها واثرائها من خزائنه الخاصة لتبز كل الكنائس الاخرى . ومع أنه حمل مثل هذا الاحترام العميق لمدينة رومة غير أنه لم يقم بزيارتها ــ طول عهده كله الذي بلغ سبعا وأربعين سنة ــ سوى أربع مرات ليفي بنذوره وليؤدي الفروض الدينية(٣) .

---

(١) يبدو أن المؤرخ يقصد هنا العلاقة الودية التي قامت بين شارلمان والخليفة العباسي هارون الرشيد . انظر : الفصل السادس عشر من هذا الكتاب . [المترجم]

(٢) بنى القديس بطرس ، أمير الحواريين ، كنيستين ، الاولى في انطاكية والثانية في رومة . لقي حتفه مع القديس بولس على يد نيرون في رومة عام ٦٥ م . وقد وصف الحميري كنيسة القديس بطرس في رومة بقوله : « وفي داخل رومة كنيسة شنت باطر ، وفيها صورة قارله من ذهب بلحيته وجميع هيئته ... وفي وسط هذه الكنيسة صورة أخرى لبعض ملوكهم من ذهب أيضا ... ولهذه الكنيسة أربعة أبواب من فضة سبكا واحدا ، وهي كلها مسقفة بقرميد الصفر ملصقة بالقصدير ، وحيطانها كلها نحاس أصفر رومي ، واعمدتها واساطينها من بيت المقدس وهي في غاية الحسن والجمال . . وداخل هذه الكنيسة بيت بني باسم بطرش وبولش الحواريين ...... وفيها قبر رجلين من الحواريين ...... » . انظر : الحميري : ص ٢٧٥ . [المترجم]

(٣) زار شارلمان مدينة رومة أربع مرات ، المرة الاولى عام ٧٧٤ م ، والثانية عام ٧٨١ م ، والثالثة عام ٧٨٧ م ، أما الزيارة الرابعة والاخيرة فكانت عام ٨٠٠ م . انظر : Einhard, the Life of Ch. ; P. 73 , n. 64 . [المترجم]

الفصل الثامن والعشرون

شارلمــان امبراطور متــوج

عندما قام شارلمان بزيارته الاخيرة الى مدينة رومة كانت في ذهنه أهداف أخرى أيضا . ذلك أن الرومان[1] كانوا قد أنزلوا الكثير من الاذى بالبابا ليو Leo ، وسملوا عينيه وقطعوا لسانه ممــا اضطره للاستغاثة بالملك شارلمــان لمساعدته[2] ، وبناء على ذلك قدم شارلمان الى رومة لكي يسوي أمور الكنيسة التي كانت في حالة اضطراب شديد ، ولهذا أمضى فصل الشتاء بأكمله فيها[3] .

---

(١) يقصد المؤرخ بالرومان هنا أهالي مدينة رومة .
[المترجم]

(٢) من المعروف أن مسألة تتويج شارلمان امبراطوراً على الغرب ارتبطت بمسألة البابا ليو الثالث (٧٩٥ ــ ٨١٦ م) الذي تعرض للاهانة على أيدي جماعة من سكان رومة الذين اتهموه بأخلاقه الشخصية ، وانقضوا عليه في أحد شوارع رومة (في ٢٥ نيسان ٧٩٩ م) وأوسعوه ضربا وأودعوه السجن . غير أن البابا سرعان ما تمكن من الهرب من سجنه الى غالية يلتمس العون من شارلمان . ويبدو أن اينهارد يخطىء في مسألة سمل عيني البابا وقطع لسانه . انظر : Cam. Med. Hist., 11, P. 619 - 21 ; Cantor, P. 199 .
أيضا : فشر : ج١ ، ص ٨٨ . [المترجم]

(٣) تشير المراجع الى أن شارلمان اتجه الى رومة ، بناء على نصيحة الكوين ، لتحري الحقائق وعلاج الازمة واعادة الاستقرار الى الكنيسة الرومانية . وبالفعل وصل الملك الفرنجي الى رومة وعقد محكمة علنية برئاسته في الثالث والعشرين من شهر كانون الاول عام ٨٠٠ م . وظهر البابا وخصومه أمام العاهل الفرنجي وقضاته . واقسم البابا على الاناجيل المقدسة على أنه بريء من التهم الموجهة اليه. ولما كان من الصعوبة بمكان على المتآمرين=

وأثناء وجود (شارلمان) في رومة أطلق عليه لقب : امبراطور وأغسطس Emperor and Augustus [1]، فلم يرتح لهما، وكرههما في بادىء الامر،وأعلن

=أن يحضروا اثنين وسبعين شاهداً،وهو العدد الذي تتطلبه قوانين الكنيسة لادانة البابا ، فقد قرر القضاة تبرئة البابا واعدام المتآمرين . وقبل أن ينفذ قرار المحكمة تدخل البابا نفسه لدى شارلمان لصالح المتآمرين عليه حيث استبدل النفي بالاعدام . انظر تفصيل هذه الحادثة عند :

Cam. Med. Hist., 11, PP. 620 - 22 ; Stephenson, P. 178 ; Cantor, P. 199 ; Pirenne, M. and Ch., PP. 232 FF., Painter, P. 80 .

[المترجم]

(١) لقد تم تتويج شارلمان بعد يومين من تبرئة البابا ليو الثالث، اي في الخامس والعشرين من كانون الاول عام ٨٠٠ م ، وذلك في كنيسة القديس بطرس في رومة ، على يد البابا ليو نفسه ، أثناء الاحتفال بعيد الميلاد المجيد . ولقد تعددت الاراء حول دوافع البابوية في تتويج شارلمان امبراطوراً . وتميل معظم الدراسات المعنية بهذه المسألة الى أن البابوية رغبت في استخدام التتويج وسيلة لاعادة تأكيد سلطتها وهيبتها في الغرب الاوربي ، كما أن فشل بيزنطة في الدفاع عن ممتلكاتها في ايطالية وحماية الكنيسة الرومانية وحقوقها وممتلكاتها من الخطر اللومباردي،في حين نجح شارلمان في دفع هذا الخطر ، كل ذلك كان حجة في يد البابوية لنقل التاج الى شارلمان . ومن ناحية اخرى فقد ساد الاعتقاد آنذاك أن العرش الامبراطوري في القسطنطينية بحكم الشاغر وذلك لان الامبراطورة ايرنة، التي تنتمي الى الاسرة المعادية للايقونات ، تعتبر امراة مجرمة لانها سملت عيني ابنها الامبراطور قسطنطين السادس وزجت به في السجن عام٧٩٧م. ولهذه الاعتبارات وغيرها وجدت البابوية انه لابد من نقل التاج الامبراطوري الى شخص آخر ، وكان شارلمان ، في نظرها ، هو المؤهل الوحيد لشغل هذا المنصب . انظر تفاصيل هذه المسألة عند : موس : ص ٣٢٨ ، فشر ، ج١ ، ص ٨٨ ــ ٩٠ ، رستم : الروم ، ج٢ ، ص ٣١٣، باراكلاف : الدولة والامبراطورية، ص ١٨٣ . عاشور : أوربا العصور الوسطى،ج١ ص١٩٧ .

[المترجم]

أنه ما كان ليدخل الكنيسة في ذلك اليوم العظيم من أيام الاعياد لو علم بعزم البابا على منحه هذين اللقبين[١] .

لقد استاء أباطرة الرومان[٢] استياء بالغاً من إنعام البابا على شارلمان بهذين اللقبين ، وتحمل شارلمان حسدهم بصبر جميل ، واستل غضبهم، وهدهد من غطرستهم برسائله الرقيقة ، ورسله الذين حملوا اليهم حبه وأخوته لهم ،

---

(١) تعتبر رواية أينهارد هذه رواية محيرة للغاية وتدعو الى الشك والريبة . هل فعلا أن شارلمان لم يكن يرغب في التاج الامبراطوري ؟. ومع أن عدداً من المؤرخين صدقوا هذه الرواية واكدوا بأن البابا هو وحده صاحب فكرة التتويج ، غير أنها لم تلق أي تأييد من معظم الباحثين المحدثين الذين يؤكدون على أن التتويج كان تلبية لرغبة شارلمان وطموحاته في التاج الامبراطوري . ربما تبرم شارلمان من الطريقة التي تم فيها التتويج ، فمن المحتمل انه كان يرغب في اعداد حفل خاص يليق بهذه المناسبة ، وربما لم يكن يريد أن يتوج على يد البابا وانما يرغب في أن يتوج نفسه حتى لا يبدو التاج وكأنه منحة أو هبة من البابا الى شارلمان وبالتالي لا يليق بالفاتح العظيم شارلمان أن يأخذ التاج من يد احد رجال الكنيسة ولو كان البابا نفسه ، وربما ، أخيراً ، لم يكن شارلمان يرغب في اثارة غضب بيزنطة في تلك الفترة . انظر مناقشة هذه المسألة عند :

Painter, P. 80 ; Cantor, P. 200 .

أيضا : موس : ص ٣٤٨ ، دوسن : ص ٢٧٢ ، فشر : ج١ ، ص٩٠ ، سمالي : ص ٨٥ ، ديفز : ص ١٧٩ ــ ١٨٠ ، باراكلايف : ص ١٨٣ ، عبيد : ص ٢١٨ . [المترجم]

(٢) المقصود بذلك الاباطرة البيزنطيين . ويلاحظ أن أينهارد هنا يستخدم المصطلح الذي اطلقه هؤلاء الاباطرة على أنفسهم .

[المترجم]

ولا شك أنه كان يفوقهم جميعا بشهامته ، وحسن مودته مما جعل ثورة الغضب تنطفىء في نفوسهم[1]

★ ★ ★

(١) لقد رأت بيزنطة في تتويج شارلمان طعنة نجلاء صوبتها البابوية والدوائر السياسية الغربية الى صدرها . ولقد أعلنت الامبراطورة إيرنة استنكارها لهذا التتويج ، فقد تمسكت بيزنطة دائما بمبدأ وحدة الامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب ، وكانت تعتقد أن الامبراطور الروماني ليس سوى الامبراطور الجالس في القسطنطينية ، ولهذا فقد كان شارلمان في نظر بيزنطة مجرد زعيم جرماني بربري مغتصب للتاج الامبراطوري . وأدرك شارلمان أن تتويجه امبراطوراً لن يكتسب الشرعية الا اذا اعترفت بيزنطة به . وقد استغل شارلمان ظروف الامبراطورية البيزنطية فقام باحتلال استرية وبعض المدن على ساحل دالماثية ومدينة البندقية وذلك للضغط على بيزنطة لكي تعترف به امبراطوراً . وقد اضطرت بيزنطة ــ التي كانت تخوض صراعاً مريراً ضد البلغار ــ لأن تعترف بشارلمان امبراطوراً عام ٨١٢م وذلك في عهد الامبراطور البيزنطي ميخائيل الاول (٨١١ــ٨١٣). انظر مناقشة هذه المسألة عند : باراكلاف : ص ١٦٨ ــ ١٨٧ ، زيتون : ص ٣٢٨ . أيضا انظر :
Ostrogrosky, PP. 176 - 77 ; Stephenson, PP. 178 - 79 , Fichtenau, PP. 77 f.
[المترجم]

الفصل التاسع والعشرون
اصلاحات شارلمان

بعد أن تسلم (شارلمان) اللقب الامبراطوري اكتشف أن قوانين شعبه شديدة النقص (إذ كان للفرنجة نظامان قضائيان يختلف أحدهما عن الاخر اختلافا كبيراً في نقاط عديدة) ، ولهذا قرر أن يضيف الى هذه القوانين ما يسد ما فيها من نقص ، وأن يسوي ما فيها من تناقضات ، وأن يصحح ما كان فاسداً منها وما ورد في تفسيرها بشكل خاطىء • على أن (شارلمان) لم يذهب بعيداً في هذه المسألة ، فلم يَعْدُ أن أضاف الى القوانين مجموعة شرائع قليلة ،وهذه الشرائع لم تكن كاملة ، ولكنه أمر بأن تجمع القوانين الخاصة بكل القبائل التي تخضع لسلطانه وتدوّن[1] •

كما أمر (شارلمان) أيضا بتدوين الاغاني القديمة الخاصة بالجرمان والتي تمجد أعمال ملوكهم القدامى وحروبهم من أجل نقلها الى الأجيال القادمة • كما بدأ بوضع قواعد النحو الخاصة بلغته الوطنية (الفرنجية) • واستبدل بالاسماء اللاتينية والبربرية أسماء وطنية وضعها بلغته (الفرنجية) ، وزاد على الاسماء الاربعة المعروفة للرياح ثمانية أسماء أخرى فغدت اثني عشر اسماً •

---

(١) من المعروف انه كان لدى الفرنجة القانون السالي والقانون الريبورياني ولقد حاول شارلمان التشبه بالامبراطور البيزنطي جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ، فقام بتسجيل القوانين الجرمانية والعادات المتوارثة في شكل مجموعة قانونية تضمنت بعض القواعد العامة ، كي يسترشد بها الحكام في اصدار أحكامهم بين مختلف القبائل التي تخضع لشارلمان . والواقع كانت تلك القوانين وهذه الاحكام خليطامن قوانين وفتاوى ونصائح اخلاقية ودينية . وعلى الرغم من أن مجموعة شارلمان القانونية لا ترق بحال من الاحوال الى مستوى مجموعة جستنيان القانونية الا انها تنم عن جهود صادقة لتحويل الهمجية الى حضارة . انظر : جوزيف نسيم يوسف : اوربا ، ص ١٥٨ ، ديوارنت : قصة الحضارة ، ج١٤ ، ص ٢٣١ .
[المترجم]

أطلق شارلمان على شهر كانون الثاني اسم Wintermanoth (أي شهر الشتاء) ، وعلى شباط اسم Hornung (أي شهر سقوط قرون الايائل) ، وعلى شهر آذار اسم Lenztizimanoth (أي شهـر الربيع) ، وعلى شهـر نيسان اسـم Ostarmanoth (أي شهر عيد الفصح) ، وعلـى شهر أيـار Winnemanoth (أي شهر المراعي) ، وعلى شهر حزيران اسم Brachmanoth (أي شهر تشقق الارض)، وعلى شهر تموز اسم Heuvimanoth (أي شهر القش) ، وعلى شهر آب اسم Aranmanoth (أي شهر سنابل القمح) ، وعلى شهر ايلول اسم Witumanoth (أي شهر الحطب) ، وعلى شهـر تشرين الاول Windume Manoth (أي شهر قطف العنب) ، وعلى شهر تشرين الثاني اسم Herbistmanoth (أي شهر الحصاد) ، وعلى شهر كانون الاول اسـم Heilagmanoth (أي الشهر المقدس) .

أما الريـاح فقـد سماهـا كمـا يلي :

Subsolanus, Ostroniwint (أي الريح الشمالي)
Eurus, Ostsundroni (أي الريح الشمالي الشرقي)
Euroauster, Sundostroni (أي الريح الشرقي الشمالي)
Auster, Sundroni (أي الريح الشرقي)
Austro - Africus Sundwestroni (أي الريح الشرقي الجنوبي)
Africus, Westsundroni (أي الريح الجنوبي الشرقي)
Zephyrus, Westroni (أي الريخ الجنوبي)
Caurus, Westnordroni (أي الريح الجنوبي الغربي)
Circus, Nordwestroni (أي الريح الغربي الجنوبي)
Septentrio, Nordroni (أي الريح الغربي)
Aquilo, Nordostroni (أي الريح الغربي الشمالي)
Vulturnus, Ostnordroni (أي الريح الشمالي الغربي)

★ ★ ★

الفصل الثلاثون

تتويج لويس ـ وفـاة شارلمـان

اعتلّت صحة شارلمان ، في أواخر حياته ، بسبب المرض والشيخوخة ، فاستدعى ابنه الوحيد الذي ظل على قيد الحياة ، والذي كان قد رزق به من (زوجته) هلدجارد ، وهو لويس ملك أقطانية ، ثم جمع كل زعماء مملكـة الفرنجة في اجتماع مهيب[1] . وفي هذا الاجتماع عيَّن شارلمان ابنه لويس ، بموافقتهم الاجماعية ، ليحكـم بنفسه المملكة كلهـا ، ونصبّه وريثاً للقب الامبراطوري ، ومن ثم أمر ابنه ، وهو يضع التاج على رأسه ، بأن يعلن نفسه امبراطوراً وأغسطساً[2] .

---

(١) لقد خشي شارلمان من اندلاع حرب الوراثة بين ابنائه بعد وفاته ، كمـا ادرك أن امبراطوريته الواسعة بحاجة الى الدفاع عنها في عدة مواقع في وقت واحد ، فقسمها عام ٨٠٦م بين أولاده الثلاثة: بيبن ولويس وشارل. ولكن لم يحدد قرار التقسيم من هو الامبراطور من بين هؤلاء الابناء . غير أن بيبن توفي عام ٨١٠ م وشارل توفي عام ٨١١ م ، وبالتالي لم يبق من ابناء شارلمان على قيد الحياة الا ابنه لويس الذي اشتهر بالتقي . انظر :
Cam. Med. Hist., 11, P. 624 .
[المترجم]

(٢) عقد هذا الاجتماع مع الزعماء الفرنجة في العاصمة اكس لا شابيل في ايلول من عام ٨١٣ م . واقترح هؤلاء على الامبراطور تعيين ابنه الوحيد الذي كان لا يزال على قيد الحياة وهو لويس . فتم استدعاء لويس من أقطانية ليتلقى القرار . واعقب ذلك مباشرة (١١ ايلول ٨١٣ م) تتويج لويس امبراطوراً بيد والده شارلمان بكنيسة اكس لا شابيل . ان شارلمان لـم يلتمس موافقة البابا ليو الثالث (٧٩٥ ــ ٨١٦ م) على تتويج ابنه لويس. وربما افاد شارلمان من تجربته السابقة مع البابوية في مسألة التتويـج وبالتالي خشي من المزاعم البابوية . لقد انكرت البابوية ما قام به شارلمان من تتويج ابنه لويس بنفسه امبراطوراً. ففي عـام ٨١٦ قدم البابا ستيفن الرابع (٨١٦ ــ ٨١٧ م) الى ريمس واوعز الى لويس بأن يقبل تتويجـه للمرة الثانية . انظر : كانتور : ص ٣١٠ ــ ٣١١ ، ديفز : ص ٢٧٠، ايضا:
Cam. Med. Hist., 11, PP. 624 - 25 . [المترجم]

لقيت هذه الخطوة الترحيب والاستحسان الكبيرين من قبل كل الحضور، وذلك لأنها بدت ، في الحقيقة ، كما لو أن الله قد ألهم شارلمان القيام بها لخير المملكة ، وزادت من هيبة الملك وملأت قلوب الامم الاجنبية برعب واضح .

طاب شارلمان من ابنه ، بعد تتويجه ، العودة الى أقطانية ، ثم أعد العدة، برغم وهن الشيخوخة ، للقيام برحلته المعتادة للصيد بالقرب من قصره في اكس لا شابيل . ومضى شارلمان يصطاد بقية فصل الخريف ، ثم عاد الى قصره في أوائل شهر تشرين الثاني(١) .

كان شارلمان يقضي فصل الشتاء في اكس لا شابيل وقد أصابته ، في شهر كانون الثاني ، حمى شديدة ، اضطرته الى أن يأوي الى فراشه . وفرض على نفسه صياما اعتاد أن يلتزمه حينما يلم به المرض أو تصيبه الحمى ، اعتقاداً منه بأن ذلك هو السبيل الى التخلص من المرض أو الى تسكين الألم على الاقل .

وعانى شارلمان ، بالاضافة الى الحمى ، من ألم في جنبه ، وهو الألم الذي يدعوه الاغريق بذات الجنب ، ولكنه تابع صيامه ، وكان يقوي نفسه بجرعات من السوائل كان يحتسيها بين فواصل زمنية طويلة .

وأخيراً،وفي الساعة التاسعة من صباح الثامن والعشرين من كانون الثاني، وبعد تناول العشاء الرباني ، غربت شمس حياة شارلمان ، بعد أسبوع من الحمى التي ألزمته الفراش ، وكان في الثانية والسبعين من عمره الذي قضى منه سبعة وأربعين عاما في الحكم (٢) .

★ ★ ★

(١) اي في الاول من شهر تشرين الثاني من عام ٨١٣ م . [المترجم]

(٢) كانت وفاة شارلمان في ٢٨ كانون الثاني من عام ٨١٤ م . [المترجم]

الفصل الحادي والثلاثون

دفـن شارلمـان

تم غسل جسد شارلمان والعناية به بالطريقة المعتادة، ثم حمل الى الكنيسة، ودفن وسط أصوات النحيب العالية التي انطلقت من الشعب كله[١] .

وكان هناك ، في بادىء الامر ، تساؤل حول المكان الـذي ينبغي أن يوارى فيه جثمانه ، وذلك لأن شارلمان لم يعط ، خلال حياته ، أية توجيهات تتعلق بدفنه . ولكن وافق الجميع ، أخيراً ، على أنه ليس هناك مكان أكثر إجلالا يصلح لدفنه أكثر من الكاتدرائية نفسها التي كان قد بناها في المدينة ، على نفقته الخاصة ، تمجيداً منه للرب ومحبة لسيدنا المسيح وأمه مريم العذراء المقدسة الخالدة .

وهكذا فقد تم دفن شارلمان في هذه الكاتدرائية في اليوم نفسه الذي توفي فيه[٢] ، ونصب قوس مطلي بالذهب فوق قبره يحمل صورته وكتابات منقوشة كتب فيها: «في هذا القبر يرقد جسد شارلمان ، الامبراطور الارثوذكسي العظيم ، الذي وسع بمجد مملكة الفرنجة ، وحكم حكما مقرونا بالازدهار ، سبعا وأربعين سنة ، توفي في السبعين مـن عمره ، سنة ثمانمائة وأربع عشرة ميلادية، وفي الخمسعشرية السابعة[٣] في اليوم الثامن والعشرين من كانون الثاني.

---

(١) عن كتدرائية اكس لاشابيل انظر الفصل السابع عشر من هذا الكتاب .
[المترجم]

(٢) يقول بعض الباحثين ان شارلمان دفن تحت قبة كنيسة اكس لا شابيل مرتديا أثوابه الامبراطورية ، وقد وضع سيفه المعروف باسم « المرح » غير مغمور على ركبتيه . انظر ديورانت : ج١٤ ، ص ٢٤٤ ، ديفز : ص٢٧٢ .
[المترجم]

(٣) يبدو أن أينهارد يقصد بالعقد السابع اعتبارا من ميلاد بيبن القصير وهو عام ٧١٤ م ويبدو أن اتخاذ ميلاد بيبن كبداية يعود الى اعتباره مؤسس الدولة الكارولنجية وأول ملك من ملوك هذه الاسرة . وتجدر الاشارة الى أن العقد أصبح بعد دقلديانوس وقسطنطين الكبير يدل على خمسـة عشر عاما وليس على عشرة أعوام . [المترجم]

الفصل الثاني والثلاثون

مؤشرات وفـاة شارلمـان

كانت هناك مؤشرات عديدة تنبىء بدنو أجل شارلمان . وهذه حقيقة أدركها شارلمان نفسه مثلما أدركها الاخرون . فخلال السنوات الثلاث الاخيرة من حياته تكرر كثيراً حدوث كسوف الشمس وخسوف القمر ، كما ظهرت بقعة سوداء في قرص الشمس استمرت سبعة أيام .

كما أن البهو الذي يقع بين الكتدرائية والقصر ، والذي كان شارلمان قد بذل في بنائه جهداً كبيراً ، قـد سقط فجأة وتحول الى أنقاض في يـوم صعود سيدنـا .

كما أن الجسر الخشبي ، الذي كان شارلمان قد أمر باقامته على الراين في منطقة مينتس ، وفق أروع المهارات ، والذي اقتضاه عشر سنوات من الجهد المرير ، كأنه يمكن أن يقهر الزمن ويبقى الى الابد ، قد التهمته ، بشكل كامل ، ألسنة النيران بصورة مفاجئـة ، خـلال ثلاث ساعات ، بحيث لم يبق منـه الا ما سقط تحت المـاء[1] .

وعلاوة على ذلك فان شارلمان نفسه شاهد في أحد أيام حملته الاخيرة على سكسونية ، ضد جودفريد ، ملك الدانمارك[2] ، كرة نارية تسقط فجأة من السماء ، محدثة ضوءاً ساطعاً ، وذلك بينما كان يهم بمغادرة خيمته قبل

(١) عن هذا الجسر انظر الفصل السابع عشر من هذا الكتاب
[المترجم]

(٢) عن حملة شارلمان ضد جود فريد ، انظر الفصل الرابع عشر مـن هـذا الكتـاب .
[المترجم]

شروق الشمس استعداداً للزحف • واندفعت هذه الكرة بسرعة عبر السماء الصافية ، من اليمين الى اليسار • وفي الوقت الذي كان فيه الناس يتساءلون عن دلالة هذه الاشارة وثب الحصان الذي كان يمتطيه شارلمان فجأة الى الامام بسرعة البرق وألقى فارسه على الارض بعنف شديد تمزق معه برده وتقطع سير سيفه ، وأفلت رمحه من يده وألقي على بعد عشرين قدما أو تزيد • ولم يستطع شارلمان النهوض من سقطته الا بعد أن أسرع اليه خدمه،وازاحوا عنه ما يحمله من أسلحة ودروع ، وأعانوه على النهوض •

ومن ناحية أخرى كان قصره في اكس لا شابيل قد اهتز مراراً ، كما أن سقوف جميع الابنية التي شيدها كانت تصدر عنها أصوات قرقعة بشكل دائم، كما أصاب البرق الكتدرائية التي دفن فيها بعد ذلك ، وتحطمت الكرة المذهبة، التي كانت تزين أعلى سطحها ، نتيجة الصاعقة ، وسقطت فوق منزل الاسقف المجـاور •

وفي هذه الكتدرائية نفسها ، وعلى طول حافـة الافريز الـذي يحيط بجدرانها الداخلية ، والواقع بين الطبقتين العليا والدنيا للقناطر ، نقشت كتابة بحروف حمراء تبين اسم من قام ببناء هذا المعبد • وكانت آخر كلمات هـذا النقش : الأمير كارلوس Karoius Princeps •وفي العام الذيمات فيه شارلمان

لاحظ البعض ، وقبل أشهر من اصابته بالمرض ، أن حروف كلمة الأمـير Princeps قد درست ، حتى لم يعد بالامكان قراءتها •

غير أن شارلمان ، استخف بكل هذه المؤشرات ، فلم يعرها اهتماما ، أو أنه تظاهر بالاستخفاف بها ، ولم ير فيها أبداً نذيراً له أو ارتباطاً به •

★ ★ ★

الفصل الثالث والثلاثون
وصيّة شارلمان

لقد كان في نية شارلمان كتابة وصية يخصص فيها نصيباً من الميراث لبناته وأولاد خليلاته ، غير أنه بدأ بكتابتها في وقت متأخر جداً ، فلم يتمكن من إنجازها .

وعلى أية حال فقد قام ، قبل ثلاث سنوات من وفاته ، بتقسيم كنوزه وأمواله وملابسه وممتلكاته المنقولة الاخرى ، وذلك بحضور أصدقائه وخدمه الذين دعاهم ليكونوا شهوداً على صنيعه، وذلك لكي تضمن شهادتهم المصادقة على الترتيب الذي قام به . وقد وضع شارلمان موجزاً حدد فيه رغباته فيما يتعلق بتوزيع أملاكه ، وفيما يلي نصه : « باسم الله ربنا ، باسم الأب الكلي القدرة ، وباسم الابن والروح القدس ، هذه قائمة الحصر والتوزيع التي أملاها أرفع السادة مجداً وأكثرهم ورعاً ، شارلمان ، الامبراطور أغسطس ، في سنة ٨١١ من تجسد سيدنا يسوع المسيح ، في الثالثة والاربعين من حكمه لفرنسة ، وفي السنة السابعة والثلاثين من حكمه لايطالية ، وفي السنة الحادية عشرة من امبراطوريته ، وفي الخمسعشرية الرابعة من حياته[1] ، وهي القائمة التي أملتها عليه اعتبارات التقوى والحكمة ومكنته معونة الرب من أن يدرج فيها كنوزه وأمواله التي ثبت وجودها في هذا اليوم في غرفة خزانته . لم تكن رغبة شارلمان في هذا التقسيم قاصرة على تقديم الصدقة عن نفسه من ثروته حسب الاصول التي اعتاد المسيحيون ممارستها ، بل كان يرغب كذلك في أن يتحرر ورثته من كل دين ، ويعرفوا بوضوح ما لهم ويتقاسموا ثروتهم دون نزاع أو مقاضاة .

بهذه النية وبهذا القصد يقسم (شارلمان) في البداية كل ما لديه من ممتلكات منقولة وكنوز مختلفة تحقق وجودها في خزانته في اليوم المذكور ، سواء كانت من الذهب أو الفضة أو الاحجار الكريمة أو الزينة الملكية ، يقسم

---

(١) عن الخمسعشرية انظر الفصل الحادي والثلاثين . [المترجم]

ذلك كله الى ثلاث مجموعات ، ومن ثم يقسم مجموعتين من هذه المجموعات الثلاث الى واحد وعشرين جزءاً في حين يحتفظ بالمجموعة الثالثة دون تقسيم .

وهكذا فقد قسمت المجموعتان الى واحد وعشرين جزءاً ، وذلك لأن في مملكته احدى وعشرين مدينة رئيسة ذات مقر أسقفي معترف به[1] وبهذا تتلقى كل اسقفية رئيسة ، عن طريق الهبة ، من ورثة (شارلمان) وأصدقائه ، جزءاً واحداً من الأجزاء المذكورة ، ويتسلم رئيس الاساقفة ، الذي يقوم بادارة شؤون أسقفيته ، الجزء المخصص لها ، ويقسمه بينه وبين مساعديه بحيث يذهب ثلث هذا الجزء الى الكنيسة بينما يحظى مساعدو (رئيس الاساقفة) بالثلثين المتبقيين .

إن الأجزاء الواحد والعشرين التي قسمت لها المجموعتان الأوليان من الارث ، تبعا لعدد المدن الاستقفية المعترف بها ، قد تم تحديدها وفصلها بعضها عن بعض ، بحيث أن حصة كل مدينة وضعت جانباً في صندوق يحمل اسم المدينة التي سيرسل اليها . أما أسماء المدن التي سترسل اليها الهبات أو الصدقات فهي التالية :

رومة Rome ، رافنة Ravenna [2] ميلان Milan [3]

---

(١) يبدو أن مدينة ناربونة قد حذفت لأسباب لا نعرفها . انظر :
Einhard. the Life of Charlemagne, P. 73, note, 83. [المترجم]

(٢) رافنة : مدينة في ايطالية وعاصمة مقاطعة رافنة . تقع على بعد ٦٨ كم الى الشرق والجنوب الشرقي من مدينة بولونية ، وعلى بعد ٨ كم من البحر الادرياتي . فيها ضريح ملك القوط الشرقيين ثيودوريك (٤٥٤ ــ ٥٢٦ م). كانت رافنة ميناء وقاعدة بحرية للاسطول في العصر الروماني . أصبحت عاصمة للامبراطور الروماني هونوريوس (ت ٤٢٣ م) . اتخذت مركزاً لممثل الامبراطور البيزنطي في ايطالية ما بين ٥٥٣ ــ ٧٥٢ م . انظر :
Moore, P. 647 . [المترجم]

(٣) ميلان : هي مدينة ميلانو الايطالية . كان اسمها في العصور القديمة ميديولانوم . وهي عاصمة ولاية ميلانو ، والمدينة الثانية من حيث الكبر في ايطالية كلها . تقع على نهر أولونا في السهل اللومباردي . ومن بين اقدم الكنائس في ميلان كنيسة امبروكيو التي اسسها القديس امبروز عام ٣٨٦م .

فريولي Friuli [1] جرادو Grado [2]
كولونية Cologne [3] مينتس Mayence [4]
سالزبورج Salzburg [5] تريف Treves [6] سنس Sens [7]

كانت ميلان ذات أهمية في العصور الرومانية . دمرها الهون ومن ثم القوط وسيطر عليها اللومبارديون . انظر : Moore, P. 515 .

[المترجم]

(١) عن فريولي انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

(٢) جرادو : تقع في دلتا نهر ايزانتو . صار اسقفها في العصور الوسطى الرئيس الروحي لاقليم البندقية . [المترجم]

(٣) كولونية : مدينة في جمهورية المانية الاتحادية حاليا . تقع على الضفة الغربية لنهر الراين ، وهي ميناء نهري . أصبحت مستعمرة رومانية عام ٥٠ م من قبل الامبراطور كلوديوس (ت ٥٤ م) . وأصبحت مقراً اسقفياً منذ القرن الرابع ثم رفعها شارلمان الى مقر لرئيس الاساقفة في عام ٧٨٥ م . لعب رؤساء أساقفتها دوراً سياسياً كبيراً . وأعظم معالمها الاثرية كنيستها المبنية على الطراز القوطي . انظر : Moore, P. 190 . [المترجم]

(٤) عن مدينة مينتس انظر الفصل السابع عشر من هذا الكتاب .

[المترجم]

(٥) سالزبورج : مدينة في شمال النمسة (أوسترية) حاليا . وهي عاصمة ولاية سالزبورج . ومن أشهر آثارها الباقية كنيسة الفرنسيسكان والدير البندكتي (الذي أسست المدينة حوله) . وهي مسقط رأس الموسيقار النمساوي المشهور موزارت . انظر : Moore, P. 687 .

[المترجم]

(٦) تريف : هي مدينة ترير Trier في جمهورية المانية الاتحادية . تقع على نهر الموزيل Moselle ، وعلى بعد ٩٦ كم الى الجنوب من كويلنتس Coblenz كانت ذات أهمية كبيرة في العصور الرومانية . وهي مسقط رأس كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) . انظر : Moore, P. 193 .

(٧) سنس : مدينة فرنسية تقع على نهر يون Yonne الى الغرب والجنوب الغربي من مدينة تروا Troyes . تعتبر كنيستها واحدة من اقدم الابنية القوطية في فرنسة . انظر : Moore, P. 708 .

[المترجم]

بــزانســــــــن Besançon (١) ليـــــــــــون Lyons (٢)
روان Rouen (٣) رنـــــس Rheims (٤) آرل Arles (٥)
فيـــين Vienne (٦) موتييه آن تارانتز Moutiers - en - Tarantaise (٧)

---

(١) بزانسن : مدينة فرنسية . تقع عند سفوح جبال جورة Jura . اسست كنيستها في القرن الرابع الميلادي . استولى عليها يوليوس قيصر عام ٥٨ ق.م . أصبحت مركزاً عسكرياً ورومانياً هاماً ، ثم اصبحت مستعمرة رومانية . وهي مسقط راس فيكتور هوغو (١٧٧٢ ــ ١٨٣٧).
انظر : . Moore, P. 99 [المترجم]

(٢) ليون : مدينة فرنسية تقع على نهر الرون . وهي عاصمة مقاطعة الرون وثالث كبرى المدن في فرنسة . أسست عام ٤٣ ق.م كمستعمرة رومانية. وكانت أول مدينة في غالية تحولت الى المسيحية في القرن الثاني الميلادي .
انظر : . Moore, P. 477 [المترجم]

(٣) روان : مدينة فرنسية . تقع على نهر السين . وهي على بعد ١١٣ كم الى الشمال الغربي من باريس . أصبحت عاصمة نورماندية في القرن العاشر . وفي هذه المدينة توفي وليام الفاتح . سيطر عليها الانجليز ما بين ١٤١٩ ــ ١٤٤٩ م . وفي هذه المدينة تمت محاكمة جان دارك واحراقها عام ١٤٣١ م . انظر : . Moore, P. 667 [المترجم]

(٤) رنس : مدينة فرنسية . تقع على نهر الفل Vesle ، وعلى بعد ١٣٢ كم الى الشرق والشمال الشرقي من باريس . وفي كنيستها تم تتويج كلوفيس ملكا على الفرنجة عام ٤٩٦ م . كما توج في الكنيسة ذاتها الملوك الفرنسيون الذين اعتلوا العرش الفرنجي بعد كلوفيس . انظر : . Moore, P. 649
[المترجم]

(٥) آرل : مدينة فرنسية تقع على الضفة اليسرى لنهر الرون . كانت ذات اهمية في العصور الرومانية وعاصمة بلاد الغال في القرن الرابع الميلادي . وفي عصر شارلمان أصبحت مركزاً رئيساً للتجارة . وفي القرن العاشر اصبحت عاصمة مملكة آرل التي تكونت من مملكتي بورجوندية وبروفانس.
انظر : . Moore, P. 50

(٦) فيين : مدينة فرنسية ، تقع على الضفة اليسرى لنهر الرون ، وعلى بعد ٢٧ كم الى الجنوب من مدينة ليون . تحتوي على آثار رومانية رائعة ، وبخاصة معبد اغسطس . كما تحتوي على كنيسة القديس موريس. انظر: . Moore, P. 833 [المترجم]

(٧) موتييه آن تارانتز : بلدة صغيرة على نهر الايزر في الجنوب الشرقي من

امبرون Embrun[1] ، بوردو Bordeaux [2] ، تـــور Tours [3]
وأخيراً مدينة بورج Bourges[4]

أما المجموعة الثالثة التي يرغب (شارلمان)أن تبقى كاملة دون تقسيم فيوصي أن تمنح على النحو التالي : في الوقت الذي تقسم فيـه المجموعتان السابقتان الى الأجزاء التي تم ذكرها آنفا ، والتي سيتم فصلها وختمها ، فان المجموعة الثالثة سوف تستخدم لتغطية النفقات اليومية لمالكها ، والتي ستكون له ملكية خاصة ليس عليه أية التزامات للتنازل عنها ، وذلك من أجل الانفاق

فرنسـة . وهي متاخمة لسويسرة الشمالية ــ الغربية . ونهر الايزر من روافد نهر الرون . [المترجم]

(١) امبرون : بلدة سياحية في جبال الالب . تقع على نهر الدرانس Durance وهو من روافد نهر الرون . تشتهر هذه المدينة بكنيستها . [المترجم]

(٢) بوردو : مدينة فرنسية تقع على نهر الجارون، وعلى بعد٩٦كم من البحر. وهي ميناء نهري رئيسي في الجنوب الغربي من فرنسة. كانت مركزاً تجارياً هاماً في العصور الرومانية . وفي القرن الرابع الميلادي أصبحت عاصمـة اقطانية ولقد أطلق عليها الجغرافيون العرب اسم « بُرذيل » . انظر : الحميري : ص ٩٠ ، القزويني : ص ٥٧٩ . [المترجم]

(٣) تور : مدينة فرنسية . تقع على بعد ٢٠٦كم الى الجنوب الغربي من باريس استولى عليها القوط الغربيون في القرن الخامس الميلادي . واستولـى عليها الفرنجة في القرن السادس الميلادي. ودارت معركة بلاط الشهداء ، بين الغافقي وشارل مارتل ، عام ٧٣٢ م على مسافة ٤٨ كم الى الجنوب من مدينة تور . وقد أطلق الجغرافيون العرب على مدينـة تـور اسـم « طرنش » . ويقول الحميري عنها بأنها « من أشرف مدائن افرنجية » ، وفيها ضريح القديس « شنت مرتين وبها عظامه ..» . وفيها مصاحف انجيلهم الواحامن ذهب مكللة بالياقوت والزمرد.. انظر: الحميري: ص٣٩١. [المترجم]

(٤) بورج : عاصمة مقاطعة فرنسية على نهر اللوار . وفي العصور القديمـة كانت عاصمة اقطانية الرومانية . وفي العصور الوسطى كانت عاصمـة مقاطعة بري . انظر : Moore, P. 117 .

[المترجم]

منها لايفاء النذور ، وهي ملكية تظل تحت تصرفه طوال حياته ، أو ما دام يعتبرها ضرورية لسد حاجته • ولكن في حال وفاته أو في حال دخوله الطوعي سلك الرهبنة ، فان هذه المجموعة من الثروة يجب أن تقسم الى أربعة أجزاء ، حيث يضاف واحد منها للاجزاء الواحد والعشرين السابقة ، أما الجزء الثاني فانه يخصص لأولاده وبناته ولأولاد أولاده وبناتهم • حيث ينبغي توزيعه عليهم وفق حصص متساوية وعادلة • أما الجزء الثالث فانه ، تبعا للتقليد المسيحي الشائع ، يجب أن يخصص للفقراء ، في حين يذهب الجزء الرابع والاخير للذين يعملون في القصر من الخدم رجالا ونساء

رغب شارلمان في أن يضاف الى المبلغ الكامل للمجموعة الثالثة المؤلفة ــ كسابقتيها ــ من الذهب والفضة ، أن يضاف اليها جميع الاوعية والادوات النحاسية والحديدية والمعدنية الاخرى ، اضافة الى الاسلحة والثياب والمواد المنقولة الأخرى ، الغالي منها والرخيص ، ذات الاستعمالات المختلفة مثل الستائر والأغطية والسجاجيد والأنسجة الصوفية والمواد الجلدية والسروج وما يعثر عليه في غرفة خزينته وفي خزانة ثيابه ، وذلك بغية زيادة كمية الأجزاء التي قسمت اليها المجموعة الأخيرة من الكنوز ، ولكي تصل الصدقات الموزعة الى أكبر عدد من الاشخاص •

وعلاوة على ذلك يأمر شارلمان أن كنيسته، أوبالاحرى ممتلكات كنيسته، اضافة الى كل ما كان شارلمان قد قدمه أو جمعه أو وصل اليه كميراث من والده ، يأمر أن يبقى كاملا وأن لا يقسم الى أية حصص أو أقسام مهما كانت •

غير أنه اذا وجدت في هذه الكنيسة آنية أو كتب أو أدوات أخرى ، لم يكن هو الذي قدمها الى الكنيسة المذكورة على وجه التأكيد ، فان أي شخص يستطيع الحصول عليها مقابل دفعه قيمتها التي تحددها تقديرات عادلة • كما أنه يأمر أن تباع كتبه التي جمعها في مكتبته بأعداد كبيرة الى من يريدها وفق أسعار عادلة مناسبة • وتوزع الاموال التي يتم الحصول عليها من عملية بيع الكتب هذه على الفقراء •

وكان شارلمان يمتلك بين كنوزه النفيسة ثلاث مناضد من الفضة وطاولة كبيرة وضخمة جداً من الذهب • وقد أوصى أن ترسل المنضدة الفضية المربعة ـ والتي نقشت عليها صورة لمدينة القسطنطينية ـ الى كنيسة القديس بطرس الرسول في رومة اضافة الى ما كان قد خصص لها من الهدايا الأخرى • أما المنضدة المستديرة ، التي تزينها صورة مدينة رومة ، فيجب أن تعطى لكنيسة الأسقفية في رافنة • وأما الثالثة ، والتي تبز الاثنتين الأخيرتين من حيث وزنها وجمالها وروعة صناعتها ، والمؤلفة من ثلاث دوائر ، تبين صورة الكون ، وقد رسمت بمهارة فائقة ودقة وبراعة ، أما هذه فانها تذهب ـ اضافة الى المنضدة الذهبية الرابعة ، لتزيد من الحصة التي خصصت لورثته وللصدقات على الفقراء •

لقد قام شارلمان بكتابة هذا الصك ، بما فيه من تحويل للملكيات على النحو الذي ذكرناه ، وحدد فيه ما أراد أن يحدد ، وعين لمن أراد حصته ونصيبه من التركة ، وذلك بحضور الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات الذين تمكنوا من الحضور ، والذين وقعوا هذا الصك (الوثيقة) ، وهم :

الأساقفة :

هيلدبالد Hildebald [1] ريكولف Ricolf [2] آرنو Arno [3]
ولفار Wolfar [4] بيرنون Bernoin [5] ، لايدراد Laidrad [6]

---

(١) هيلدبالد هو رئيس أساقفة مدينة كولونية • انظر :
Einhard., op. cit., P. 73 note, 85 .

(٢) ريكولف هو رئيس أساقفة مينتس • انظر : Ibid., P. 73 note, 86 .

(٣) آرنو هو رئيس أساقفة مدينة سالزبورج • انظر :
Ibid., P. 74 note 87 .

(٤) ولفار هو رئيس أساقفة مدينة رنس Rheims • انظر :
Ibid. P. 74 note, 88 .

(٥) بيرنون هو رئيس أساقفة مدينة بزانسن Besançon انظر :
Ibidi., P. 74 note, 89 .

(٦) لايدراد هو رئيس أساقفة مدينة ليون Lyons انظر :
Ibidi., P. 74 note, 90 .

يوحنـــا John [1] ثيودولــف Theodulf [2] جيـــس Jesse [3]
هيتــو Heito [4] والتجــود Waltgaud [5] •

رؤساء الأديرة :

فريدو جيس Fredugis ، أدالونج Adalung ، انجلبرت Angilbert
أرمينو Irmino •

الكونتــات :

والاخــو Walacho ، ميجنهــير Meginher ، أوتولــف Otulf
ستيفـــن Stephen ، اونــروج Unruoch ، بوركــارت Burchard
مينجهــارت Meginhard ، هاتو Hatto ، ريهوين Rihwin ، ايدو Edo
ايركانجار Ercangar ، جيرولد Gerold ، بيرو Bero ، هيلديجر Hildiger
ركوف Rocculf •

توفي شارلمان ، وتولى الملك ابنه لويس ، الذي تربع على العرش بنعمة الله ، وبذل جهوداً كبيرة لتنفيذ وصية والده ، وامضاء كل ما ورد في الصك من بنود بأمانة كبيرة وسرعة فائقة •

★ ★ ★

---

(١) يوحنا هو رئيس أساقفة مدينة آرل Arles انظر :
Ibid., P. 74 note, 91 .

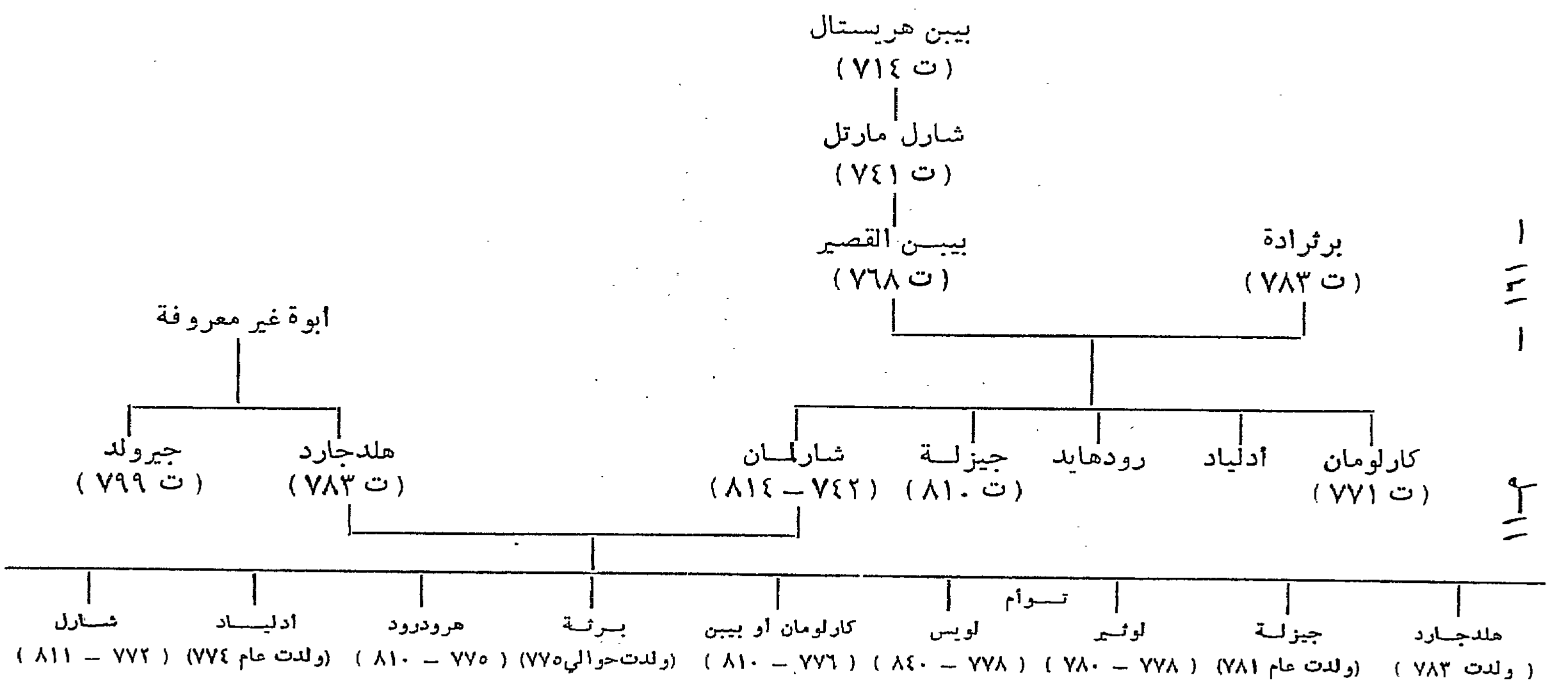
(٢) ثيودولف هو رئيس أساقفة مدينة أورليان Orleans انظر :
Ibid., P. 74 note, 92 .

(٣) جيس هو رئيس أساقفة آمين Amiens انظر :
Ibid., note, 93 .

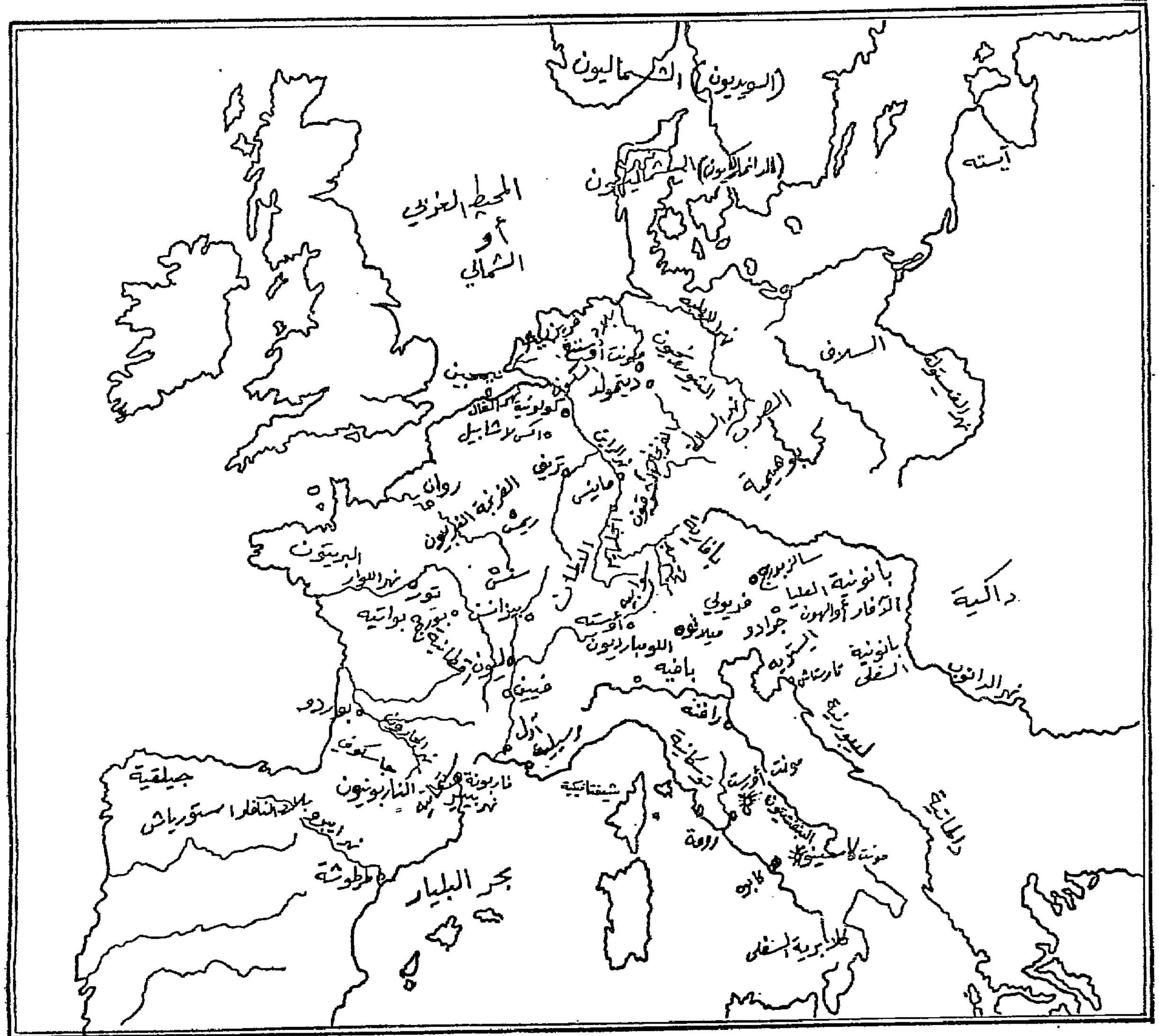
(٤) هيتو هو رئيس أساقفة مدينة باسلي Basle انظر : Ibid., note, 94 .

(٥) والتجود هو رئيس أساقفة مدينة ليج Liège انظر : Ibid., note, 95 .

شجرة نسب
عائلة شارلمان وهلدجارد



- ١٦١ -



خريطة أوربة وفقاً لكتاب أينهارد « سيرة شارلمان »

المراجع التي اعتمد عليها المترجم
في كتابة المقدمة ووضع الحواشي

اولا : المراجع العربية :

ارسلان (شكيب)

تاريخ غزوات العرب في أوربا ، مصر ، ١٣٥٢ هـ .

بدر (د. احمد)

دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، ج١ ، دمشق ، ١٩٦٩ .

بدوي (د. عبد الرحمن)

فلسفة العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

توفيق (د. عمر كمال) :

تاريخ الدولة البيزنطية ، الاسكندرية ، ١٩٧٧ .

حاطوم (د. نور الدين)

تاريخ العصر الوسيط في أوربة ، الجزء الاول ، دار الفكر الحديث – لبنان، ١٩٦٧ .

حسن (د. حسن ابراهيم)

تاريخ الاسلام : السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤اجزاء، القاهرة، ١٩٦٤ – ١٩٦٧ .

الحميري (محمد عبد المنعم)

كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار (تحقيق د. احسان عباس)، بيروت، ١٩٨٠ .

الخضري (محمد)

محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

ربيع (د. حسنين)

دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

رستم (د. أسد)

الروم ، جزءان ، بيروت ، ١٩٥٥ – ١٩٥٦ .

زيتون (د. عادل)

العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى ، دمشق ، ١٩٨٠ .

سالـم (د. عبـد العزيز)

تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦١ .

سالم (د. عبد العزيز) والعبادي (د. أحمد مختار)

تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر المتوسط ، جزءان ، الاسكندرية، ١٩٨١ .

سلامـة (أمـين)

التاريخ الروماني ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

الصوفي (د. خالـد)

تاريخ العرب في الاندلس ، بنغازي ، ١٩٧١ .

طرخان (د. ابراهيم علي)

المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

عاشور (د. سعيد عبـد الفتاح)

ـ المدنية الاسلامية واثرها في الحضارة الاوربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ـ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الاول ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

ـ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الثاني ، النهضات والحضارة والنظـم ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

العاني (حسن فاضل زعين)

سياسة المنصور ابي جعفر الداخلية والخارجية ، بغداد ، ١٩٨١ .

عبيـد (د. اسحق)

الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

العريني (د. السيد الباز)

تاريخ أوربا العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٦٨ .

عمـر (د. فاروق)

بحوث في التاريخ العباسي ، بيروت ، ١٩٧٧ .

عنـان (محمد عبـد الله)

دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الاول ـ القسم الاول ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

فـروخ (د. عمـر)

العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط ، بيروت ١٩٨١ .

القزويني (زكريا بن محمد)
آثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ، بيروت .
كـرم (يوسـف)
تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثـة .
ماجـد (د. عبـد المنعـم)
العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٦٦ .
المقري (أحمد بن محمد المقري التلمساني)
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، الجزء الاول ، (تحقيق د. احسان عباس) ، بيروت ، ١٩٦٨ .
مؤلف مجهول
أخبـار مجموعـة ، مدريد ، ١٨٦٧ .
نصحي (د. ابراهيم)
تاريخ الرومان ، جزءان ، ليبيا ، ١٩٧٣ .
اليوسف (د. أحمد عبـد القادر)
العصور الوسطى الاوربية ، بيروت ، ١٩٦٨ .
يوسف (د. جوزيف نسيم)
تاريخ العصور الوسطى الاوربية وحضارتها ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

ثانيـا : المراجـع المعربـة :

ارنولـد (سيرتوماس)
الدعوة الى الاسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ود. عابدين ود. النحراوي ، القاهرة ، ١٩٧١ .
باراكلاف (ج)
الامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة د. جوزيف نسيم ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
بروفنسال (ليفي)
ـ العرب في الاندلس ، (الترجمة العربية) ، بيروت .

حتي (د. فيليب)

- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جزءان (الترجمة العربية) ، بيروت ، ١٩٥٨ - ١٩٧٢ .
- صانعوا التاريخ العربي ، ترجمة د. أنيس فريحة ، بيروت ، ١٩٦٩ .

دوسن (كرستوفر)

- تكوين أوربا ، ترجمة ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة ود. سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

دولسي (دونالد)

حضارة روما ، ترجمة فاروق فريد وجميل الذهبي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

دوزي (ر)

تاريخ مسلمي اسبانيا ، الجزء الاول ، ترجمة د. حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ديفز (هـ. و. ك)

شارلمان ، نقله الى العربية السيد الباز العريني ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

ديورانت (ول)

قصة الحضارة ، الجزء الرابع عشر (الترجمة العربية)، القاهرة، ١٩٧٥.

رنسيمان (ستيفن)

تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ترجمة د. السيد الباز العريني ، بيروت، ١٩٦٧ .

رينو (جوزيف)

الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا ، تعريب وتعليق وتقديم د. اسماعيل العربي ، دار الحداثة ، بيروت ١٩٨٤ .

سمالي (بيريل) : المؤرخون في العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم ، القاهرة ١٩٧٩ .

عطية (د. عزيز سوريال)

العلاقات بين الشرق والغرب : تجارية ، ثقافية ، صليبية ، ترجمة د. فيليب صابر سيف ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

فشر (هـ. ا. ل.)
تاريخ أوربا العصور ال سطى ، ج١ ، نقله الى العربية د. محمد مصطفى زيادة ود. السيد الباز العريني ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
كانتور (نورمان)
التاريخ الوسيط ، ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .
كرامب (ج) وجاكوب (ا)
تراث العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
كولتون (ج. ج)
عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ، القاهرة ، ١٩٦٧
لوبون (غوستاف)
حضارة العرب ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، بيروت ، ١٩٧٩ .
لويس (ارشيبالد)
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (من ٥٠٠ — ١١٠٠ م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
موس (هـ. سانت)
ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
هاسكنس
نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف ، الاسكندرية ، ١٩٧١ .
هارتمان (ل.م) وباراكلاف (ج)
الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة وتقديم د. جوزيف نسيم يوسف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

ثالثا : المراجع الاجنبية :

Boussard, D.,
The Civilisation of Charlemagne, London, 1968 .
Cambridge Medieval History, 6 Vols., Cambridge, 1936 - 1948 .
Cantor, N.F., The Medieval History, london, 1969.

Delorne, J.,
Les Grandes dates du Moyenage, Paris, 1964 .
Duden, Lexikon, 3 Vols., Mannheim, 1967 .

Fichtenau, H.,
The Carolingian Empire, (Eng. Trans.), Oxford, 1963 .
Hammond, N.G.L. and Scullard, H.H., (ed.) The Oxford Classical dictionary, Oxford, 1970 .

Hussey, J. M..,
The Byzantine World, London, 1967 .

Hyde, J. K.,
Society and Politics in medieval ltaly, London, 1973 .

Keen, M.,
The Pelican history of Medieval Europe, London, 1968 .
Lasko, P., The Kingdom of the Franks, London, 1971 .

Moore, W.G.,
The Penguin Encyclopedia of Places, Great Britain, 1978 .

Obolensky, D.,
The Byzantine Commonwealth, London, 1971 .
Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956 .
Painter, S. A Hisory of the middle Ages, London, 1973 .

Pirenne, H.,
- Mohammed and Charlemagne (Eng. Trans.), London, 1954 .
- A History of Europe, (Eng. Trans.), London, 1961 .

Radice, B., Who's in the ancient World., Great Britain, 1982 .
Read, J.,
The Moors in Spain and Portugal, London, 1974 .

Stephenson, C.,
Medieval History, Washington, 1944 .
Tacitus, The Histories, (Eng. Trans.), England, 1982 .

Vasiliev, A. A.,
History of the Byzantine Empire, 2 Vols., U.S.A., 1961 .

فهـــرس عـــام

للأعـــلام والشعوب والقبائل والأماكن

١ ـ الأعـــلام :

٢ ـ الشعوب والقبائل :

٣ ـ الاماكن :

المحتوى

هذا الكتاب

ـ يُعدُّ كتاب « سيرة شارلمان » مصدراً رئيساً عن حياة الامبراطور شارلمان وتاريخ الفرنجة والغرب الأوربي ، فضلا عن العلاقات بين الشرق والغرب في تلك الفترة المبكرة من تاريخ اوربة في العصور الوسطى .

ـ المؤرخ الفرنجي اينهارد هو اول العلمانيين الذين كتبوا في « التراجم الملكية » في اوربة خلال العصور الوسطى .

ـ ان الصورة النابضة بالحياة التي رسمها المؤرخ عن سيده شارلمان .... هي من اكثر التراجم الشخصية ابداعا وصدقا .